ي صالح

ماً عن إدوارد سعيد

دفاعاً عن إدوارد سعيد

دفاعاعن إدوارد سعيد / دراسة
فخري صالح / مؤلّف ومترجم من الأردنّ
الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٠



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @ nets. com. jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
سمّيّة سيّيد®
الصفّ الضوئيّ :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

فخري صالح

دفاعاً عن إدوارد سعيد

اهداء

إلى أولادي : أمجد ، أنس ، وأماني ، من أصبح
إدوارد سعيد رفيقا يوميا لهم أثناء إنجاز هذا الكتاب

كلمة أولى

خلال صيف العام الماضي أطلق الإعلام الصهيوني الأميركي ، وبعض الصحف والمجلات المتعاطفة مع اليمين الصهيوني في أمريكا وبريطانيا ، حملة جديدة على إدوارد سعيد ؛ فبعد أن وصفته مجلة كومنتري Commentary الأميركية الصهيونية ، قبل أكثر من عشر سنوات ، بأنه «بروفيسور الإرهاب» نشرت المجلة نفسها في عددها في شهر أيلول ١٩٩٩ مقالة ضافية لمحام يهودي أمريكي يدعى جستس رايد فاينر Justus Reid Weiner ، يقيم في القدس ويعمل مع معهد مجهول يطلق على نفسه معهد القدس للأبحاث العامة ، يتهم فيها إدوارد سعيد بأنه زيف سيرته الذاتية واختلق قصته وأنه لم يدرس في مدرسة سان جورج في القدس ولا يصح أن يسمي نفسه لاجئا فأهله كانوا أغنياء وقد غادروا فلسطين قبل أن تسقط مدينة القدس نهائيا في أيدي عصابة الهاجاناه عام ١٩٤٨ . وقد تبنت صحيفة الديلي تلغراف البريطانية الحملة ونشرت قبل صدور مقالة فاينر تغطية استعراضية لنتائج البحث الذي قام به المحامي اليهودي على مدار سنوات ثلاث (!) حول أملاك عائلة إدوارد سعيد في مصر

واستقرار والده في القاهرة لفترة طويلة .

وعندما صدرت سيرة إدوارد سعيد الذاتية **خارج المكان** ، عن دار نشر ألفرد نوبف Alfred Knopf في نيويورك ، في نهاية شهر أيلول من العام ١٩٩٩ تبين أن الضجة التي أثارها فاينر كانت زوبعة في فنجان هدفها سياسي في الأساس يترافق مع بدء استحقاقات الحل النهائي للقضية الفلسطينية ، وترمي إلى تكذيب الرواية الفلسطينية عن الاحتلال والسلب الذي بنى دولة إسرائيل على أنقاض الشعب الفلسطيني وأرضه وحقوقه . وقد كان إدوارد ضحية ملائمة لكونه مفكرا وناقدا وأكاديميا لامعا في أمريكا والغرب ، ولكونه في الآن نفسه مدافعا صلبا عن حقوق الفلسطينيين في الصحافة والمجتمعات الأكاديمية وعلى شاشات التلفزيون في أمريكا والعالم .

استنادا إلى هذه الوقائع فإن هذا الكتاب يتصدى للهجوم الأعمى ، المحتشد بالحقد وتنكب الحقائق ، الذي شنه فاينر ودوائر الإعلام اليمينية الصهيونية التي روجت لمقالته . وقد عملت لبيان حقائق الحملة ، على إدوارد سعيد ، على ترجمة مقالة فاينر بهوامشها التي تبلغ ضعف حجم المقالة نفسها ، كما ترجمت مقالة للكاتب البريطاني كريستوفر هيتشنز يرد فيها على ما يعده «أصدق تعبير عن الحقد والكذب والزيف» . وقد استعرضت ما كتبته الصحافة الأمريكية حول الموضوع محاولا إعطاء صورة عن المكانة الكبيرة التي يحتلها إدوارد سعيد في الثقافة الغربية المعاصرة ، وذلك بهدف الكشف عن الأسباب الفعلية التي تقف وراء الحملة . كما أضفت ، إلى دفاعي عن إدوارد سعيد ، ثلاث مقالات عن عدد من كتبه التي تجلو طريقة نظره إلى معنى الهوية ومفهوم المثقف والمشاركة السياسية . وأظن أن تلك المقالات ، التي تمثل فصول

الكتاب الأخيرة ، ضرورية ليتبين القارئ أسباب اختيار فاينر إدوارد سعيد ليشن عليه هجومه . إن سعيد يمثل نوعا من المثقفين العضويين الذين يصفهم في كتابه **صور المثقف** ، وهو يفضل على الدوام تبني قضايا المضطهدين والمُهمَّشين ومن لا صوت لهم . لذلك حاولت في ثنايا هذا الكتاب أن أربط المحاولة الدائمة للهجوم عليه بالقضايا والموضوعات التي يختارها للكتابة ، وأن أبين كذلك أن مكانته البارزة في الثقافة الغربية المعاصرة جعلته على الدوام هدفا لسهام الحركة الصهيونية في الغرب ، ولليمين الأمريكي في الوقت نفسه .

ويمكن لنا أن نمثل على ذلك بمقالة نشرتها مجلة New Criterion (المعيار الجديد) اليمينية الأمريكية التي نشرت في عددها لشهر كانون ثاني ١٩٩٩ مقالة تدعي أنها تفكك كتاب سعيد **الاستشراق** ، ويحذر محرر المجلة القراء بأن سعيد مرشح ليصبح رئيسا لجمعية اللغات الحديثة في أمريكا . فتحت عنوان فرعي هو **مثقفون أوغاد** تنشر New Criterion مقالة تهاجم سعيد وتدعي أن كتابه **الاستشراق** مليء بالأخطاء والأغاليط ، لكن كاتبها يعترف في بداية مقالته بالتأثير الهائل لإدوارد سعيد في الفكر الغربي المعاصر . يقول كيث ويندسكاتل Keith Windscuttle :

«في بداية عام ١٩٩٨ أقام متحف الفن في نيوساوث ويلز في سيدني معرضا بعنوان «الاستشراق : من ديلاكروا إلى كلي» . تضمن المعرض ١٢٤ لوحة و٥٠ صورة فوتوغرافية ، وقد أنجز معظم اللوحات والصور المعروضة فنانون أوروبيون ، ينتمون إلى القرن التاسع عشر ، وكانوا استوحوا موضوعات أعمالهم من شمال إفريقيا وبلاد الشام . ومن الملاحظات المطبوعة في كاتالوغ المعرض يمكننا

القول إن المرجعية الجمالية لا تشير إلى بعض نقاد الفن ، بل إلى الناقد الأدبي إدوارد سعيد ، إذ أن اسمه يتكرر بصورة ملحوظة في ذلك الكاتالوغ . وتكشف اللوحات المعروضة ، كما يقول منظمو المعرض ، عن صحة أطروحة سعيد عن «التحامل المتواصل الماكر ، الذي تمارسه المركزية الأوروبية ، ضد الشعوب العربية ـ الإسلامية وثقافاتها» ، و«العنف الناتج عن الزحف الاستعماري للقوى الأوروبية .» وقد كانت هذه المصادقة من القوة بحيث تدافعت الجماهير ، التي جاءت لمشاهدة المعرض ، لشراء الطبعة الجديدة من كتاب سعيد الشهير **الاستشراق** التي كانت ظهرت حديثا عن دار نشر بنغوين .»

ويقول الكاتب في موضع آخر من مقالته مشيرا إلى إدوارد سعيد : «إن تأثير أستاذ الأدب الأمريكي ـ الفلسطيني هو من الضخامة بحيث إن عددا هائلا من التعليقات ، التي تكتب حول الفن والأدب والسينما والموسيقى والتاريخ الأوروبي ، تتعبد بصورة طقسية في محراب أفكاره .»

ورغم أن كاتب المقالة يدعي تفكيك أفكار إدوارد سعيد إلا أن ما اقتبسناه منه سابقا يدل على التأثير العميق لفكر سعيد في الثقافة الغربية المعاصرة ، ويبين لنا كيف أن محاولة هدم مصداقيته هدف أساسي للصهيونية الغربية والدائرين في فلكها . ولعل هذا الكتاب أن يؤدي غرضه في الإشارة إلى منجز إدوارد سعيد في الفكر والنظرية الثقافية ، وفي الدفاع عن مصداقيته الأخلاقية والفكرية .

المؤلف

عمان ، حزيران ٢٠٠٠

تقديم

في مكانة إدوارد سعيد الفكرية وتأثيره المتعاظم في الغرب

على الرغم من أن عمل إدوارد سعيد النقدي والفكري يثير الكثير من الجدل والنقاش والحوار ، والإعجاب في الوقت نفسه ، منذ أكثر من عشرين عاما ، أي منذ أصدر كتابه المميز **الاستشراق** ، إلا أن سعيد أصبح خلال السنوات الأخيرة واحدا من أبرز النقاد والمنظرين الكبار في الأدب وعلاقة الأدب بمحيط إنتاجه . ويمكن للمرء أن يتابع صعود نجم إدوارد سعيد من خلال العدد الذي لا يحصى من مراجعات كتبه في الدوريات الأمريكية والإنجليزية والكتب التي تكتب عنه[١] والجدل الذي يثيره كل كتاب يصدره .

إن من الصعب في هذا الزمان بالنسبة لناقد أدبي أن يصبح نجما اجتماعيا تحتشد القاعات لسماعه ومشاهدته أثناء محاضراته ، لكن إدوارد سعيد استطاع لبلاغته وحجته القوية وقدرته المميزة

على جذب الجمهور أن يصبح من نجوم هذا العصر . وليس مستغربا ، استنادا إلى هذه الخلفية ، أن يثير اتهامه بـ «تزييف» سيرة حياته الشخصية (!) جدلا واسعا في الأوساط الصحافية في العالم حيث انبرى للدفاع عنه عدد كبير من النقاد والباحثين والصحفيين الذين رأوا في الهجوم عليه نوعا من التزييف المغلف برؤية أصولية متعصبة للتاريخ والوجود ، وهي رؤية كثيرا ما عالجها إدوارد سعيد في كتاباته ورأى أنها مضادة لرؤيته الدنيوية للتاريخ والثقافة .

يصدر إدوارد سعيد ، في رؤيته النقدية وعمله المعرفي ، عن تصور يرفض النظريات الأصولية في فهم الأدب والتاريخ ، أي تلك التي ترى في الأصل الغربي ـ الأوروبي مصدر إشعاع يغمر بضيائه الثقافات الأخرى . وقد كان كتابه **الاستشراق** (١٩٧٨) بمثابة نقد مضاد لكل هذه النزوعات الأصولية في فهم الثقافة والأدب والنقد حيث اختار لهجومه موضوعا من بين أكثر الموضوعات الشائكة في التفكير الغربي حول الشعوب الأخرى ، وهو الدراسات الاستشراقية التي صعد نجمها في مرحلة تاريخية ترافقت مع التوسع الاستعماري الهائل خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . لقد كان ينظر للدراسات الاستشراقية في السابق بوصفها أعمالا علمية خالصة لا تهدف إلى تحقيق منفعة خارج إطار قراءة الشرق ومنجزه الحضاري ، والبحث عن أسباب تأخره والتعرف على العطب الداخلي الذي يقيم في لب تصوره للعالم! وهكذا اكتسب المستشرق صورة نورانية بوصفه مترهبا في عالم الفكر ، باحثا في لغات غريبة ، مفككا لعادات شعوب متأخرة كان لها في يوم من الأيام إرث حضاري يقوم المستشرق بمحاولة تحليله ووضعه تحت

عدسة فكره الغربي التنويري! لكن إدوارد سعيد استطاع ببصيرته النافذة ، وعقله التحليلي الذي هضم معارف الغرب ومناهجه الجديدة ، أن يعيد تأطير هذه الصورة العلموية ، التي تدعي الرصانة ، والخاصة بفكر المستشرقين وإنجازهم ، مفككا هذه الصورة واضعا الاستشراق في إطاره التاريخي الثقافي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وصولا إلى النصف الأول من القرن العشرين .

لقد تكشف الاستشراق ، في عمل سعيد ، عن ممارسة من ممارسات القوة ، عن تمظهر من تمظهراتها ؛ وهو كان يخدم ، بغض النظر عن الحالات القليلة التي تمثل الاستثناء لا القاعدة ، برنامجا استعماريا للهيمنة والسيطرة ، ولم تكن أهدافه ، من ثمّ ، علمية خالصة كما ادعى ممارسوه وأتباعهم ممن درسوا تاريخ الاستشراق وإنجازه النصي .

..

يرى إدوارد سعيد أننا «إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر بداية محددة تقريبية للانطلاق منها فإن الاستشراق يمكن أن يدرس ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق ــ التعامل معه بإنشاء عبارات وزوايا نظر مفوضة حوله ، بوصفه وتعليمه وتحديده والحكم عليه : إن الاستشراق ، باختصار ، هو الأسلوب الغربي للسيطرة على الشرق وإعادة بنينته وامتلاك السيادة عليه .» **(الاستشراق ، ص : ٣)**

ومن الواضح أن ما أثار حفيظة الكثير من نقاد سعيد هو اللهجة الهجومية ، التي تستند إلى أرشيف ضخم من الكتابات الاستشراقية ، كما تستند إلى معرفة دقيقة بمناهج التحليل الغربية الجديدة التي قرأت مناطق أخرى من ممارسات القوة ــ المعرفة

وكشفت عن فضيحة العقل الغربي في أزمنة التنوير والحداثة (قراءة فوكو لتاريخ الجنون ، وتاريخ الجنس ، وتاريخ العقاب . . إلخ) . لقد أصبح كتاب **الاستشراق** من الكتب الأساسية ، في القرن العشرين ، العابرة للتخصصات التي أثرت في عملية تغيير التفكير في موضوع الاستشراق كما في حقول التفكير بالعالم الثالث وعلاقة المستعمِر ـ المستعمَر مما مهّد لظهور ما يسمى الآن «دراسات ما بعد الاستعمار» التي تعيد النظر في الخطاب الاستعماري حول البلدان والشعوب المستعمرة ، ومن ثمّ تفكك هذه العلاقة وتنظر إلى الذات الوطنية بعيون جديدة غير خاضعة لمناهج التحليل الغربية المهيمنة .

بالمعنى السابق يمكن القول إن إدوارد سعيد ، سواء في **الاستشراق** أو في كتابه التالي **الثقافة والإمبريالية** (١٩٩٣) ودراساته العديدة الأخرى ، ملهم لقطاع واسع من النقاد والباحثين في الدراسات الثقافية وتحليل الخطاب الذين بدؤوا يعيدون النظر في الكثير من المسلمات التي روج لها الخطاب الغربي في العلوم الإنسانية . يندرج في هذا السياق ثورة تغيير مفهوم الأعمال الأساسية The Canon التي يسمح بتدريسها في أقسام الأدب بالجامعات الأمريكية والأوروبية ، إذ كان إسهام إدوارد سعيد شديد الأهمية في الحض على تغيير هذا المفهوم الذي ينضح بنظرة عرقية مركزية غربية فاقعة ويستبعد المنجز الإنساني في الأدب ، ويسقط أدب الأقليات والملونين من حساب المؤسسة الأكاديمية الغربية .

كان **الاستشراق** إذن هو الذي وضع إدوارد سعيد في دائرة الضوء لكن عملاً آخر سبق **الاستشراق** لم يلق من الاهتمام ما

يستحقه ، ربما لطبيعة موضوعه المعقدة . إن كتاب **بدايات** (١٩٧٥) يدور حول مشكلات البداية واختيار الكاتب الحاسم لبداياته التي يرتحل منها وتميز عمله عن غيره من الأعمال التي سبقته . لكن أهم ما في **بدايات** هو تساؤلاته الجذرية حول اللغة بوصفها موضوعا للتفكير ، وحول الهيمنة الثقافية لمجال ثقافي أو قومي على آخر ، وحول الأصالة والتحرر والحرية . (**بدايات** ، ص : ٣٨١) وهي أسئلة بحثتها أعمال تالية لإدوارد سعيد بدءا من **الاستشراق** ، مرورا بـ**القضية الفلسطينية** (١٩٧٩) و**تغطية الإسلام** (١٩٨١) ، **والعالم ، والنص ، والناقد** (١٩٨٣) ، وصولا إلى عمله المميز الأخير **الثقافة والإمبريالية** الذي يوسع أطروحة كتاب **الاستشراق** لتشمل جهات جغرافية أوسع في العالم تتجاوز الشرق وحقول بحث وإبداع كالرواية والشعر ، دارسا في هذا الكتاب التحليلي الواسع الإطلاع والمعرفة علاقة صعود الرواية وتطورها بالتوسع الإمبريالي ، على سبيل المثال لا الحصر .

إن إدوارد سعيد ، كما نلاحظ من استعراض موضوعات كتبه ، يعمق فكرته الأساسية عن ترابط الإنجاز النصي والعالم وشروط الحياة اليومية للبشر رافضا تصورات منظري ما بعد البنيوية الذين يرفضون أية مقاربة لعلاقة النص بالعالم ، مفضلين الاهتمام بالتداخل النصي! إنهم ، كما يرى سعيد ، لا يقدمون «أية دراسة جدية لمفهوم السلطة ، سواء من حيث الطريقة التي تنتقل بها السلطة تاريخيا وظرفيا من الدولة إلى المجتمع المشبع بالسلطة ، أو بالعودة إلى العمل الفعلي للثقافة ودور المثقفين والمؤسسات والأجهزة الاجتماعية .» (**العالم والنص والناقد** ، ص : ١٧٢)

وهو من ثمّ يؤسس في **العالم والنص والناقد** مفهومه لدنيوية النصوص ويقارن بين ما يسميه النقد الديني والنقد الدنيوي مفضلا النقد الأخير الذي يرى أن النصوص الأدبية «في أكثر أشكالها مادية تكون منشبكة بالظرف والزمان والمكان والمجتمع . باختصار إنها موجودة في العالم [في الدنيا] ، ومن ثمّ فإنها دنيوية .» (العالم والنص والناقد ، ص : ٣٥) على هذا الأساس فإن هدف «النقد الدنيوي» هو «الوصول إلى إحساس مرهف بما تستلزمه قراءة أي نص ، وإنتاجه وبثه ، من قيم سياسية واجتماعية وإنسانية .» (ص : ٢٦)

يميز إدوارد سعيد أيضا بين النظرية والوعي النقدي انطلاقا من عقيدته الدنيوية فهو يرى أن «الوعي النقدي هو إدراك الاختلاف بين المواقف ، وإدراك الحقيقة التي مفادها أن لا نظام ، أو نظرية ، يمكن أن يستنفد الموقف الذي منه انبثقت أو إليه انتقلت هذه النظرية (. . . .) إن الوعي النقدي هو إدراك مقاومة النظرية ، وإدراك ردود الفعل التي تثيرها النظرية في التجارب والتأويلات الملموسة التي هي في صراع معها . وفي الحقيقة أنني أريد أن أذهب بعيدا وأقول إن عمل الناقد هو توفير مقاومة للنظرية ، وفتح هذه النظرية على آفاق الواقع التاريخي ، على المجتمع والحاجات والاهتمامات الإنسانية . إن عمله هو أن يحدد الشواهد الملموسة المستخلصة من الواقع اليومي الذي يكمن خارج أو بعد منطقة التأويل .» (**العالم والنص والناقد** ، ص : ٢٤٢)

يظل إدوارد سعيد ، إذن ، وفيا لأفكاره التي مسها بصورة عابرة في **بدايات** ، وشرحها بوضوح تام في **الاستشراق** ثم قام بتوسيعها ومد مجال تحليلها في **الثقافة والإمبريالية** ، وكذلك

في **صور المثقف** (١٩٩٤) حيث يركز على ضرورة أن يمتلك المثقف وعيا نقديا .

يشدد صاحب **الاستشراق** في كتابه **صور المثقف** على ضرورة أن لا يغيب المثقف في كتلة التفاصيل وأن لا يصبح مجرد شخص يضاف إلى جمع المتخصصين . يقول : « أريد أن اشدد على أن المثقف فرد له دوره العمومي المحدد في المجتمع الذي لا يمكن اختزاله ببساطة إلى وظيفة لا وجه لها ، إلى مجرد فرد مختص منشغل تماما بعمله . إن الحقيقة المركزية بالنسبة لي ، كما أظن ، هي أن المثقف فرد منح قدرة على تمثيل رسالة ، أو وجهة نظر أو موقف أو فلسفة أو رأي ، وتجسيدها والنطق بها أمام جمهور معين ومن أجله .» (**صور المثقف** ، ص : ٨)

من هذا التشديد على دور المثقف في حياة المجتمع يمكن فهم الدور الذي يضطلع به إدوارد سعيد في الدفاع الحار عن الحقوق الفلسطينية ، والانشغال الدائم بتحليل الشروط التاريخية للوعي الفلسطيني ، وكذلك وعي العالم بالقضية الفلسطينية . وهو يستخدم لشرح وجهة نظره أشكالا ووسائل متعددة لتوصيل أفكاره : الكتابة الأكاديمية والأبحاث المتخصصة ، الكتابة الصحفية ، والمقابلات التلفزيونية والإذاعية ؛ مما جعله شخصية عامة مؤثرة في الولايات المتحدة وبريطانيا ، وجلب عليه في الوقت نفسه غضب المؤسسات الصهيونية النافذة في الغرب التي فتحت عليه النار بالمعنيين المادي والرمزي ، وآخرها حملة جستس رايد فاينر ومجلة كومنتري الصهيونية الأمريكية .

إن إدوارد سعيد هو اليوم واحد من ألمع النقاد والباحثين المؤثرين

في مجال العلوم الإنسانية في أمريكا ، إن لم نقل في العالم . وقد ألهم عمله عددا لا يحصى من الباحثين في مجالات عديدة ، في النقد والعلوم الإنسانية . كما أنه الوجه الأبرز في الإعلام الأمريكي الذي يتحدث بصورة دائمة عن حقوق الفلسطينيين في وسائل الإعلام الأمريكية وكذلك الدولية الأخرى . وهو إلى جانب كونه مؤلفا بارزا لعدد كبير من المؤلفات ، التي تتراوح بين النقد والدراسات الثقافية ونقد الموسيقى والكتابات السياسية ، يحاضر في عدد كبير من الجامعات الكبرى في العالم ، كما أنه يرأس الآن «جمعية اللغات الحديثة» في أمريكا (وكان سبقه إلى رئاستها أعلام كبار في النقد مثل رينيه ويليك) ، وهو يكتب في عدد من الصحف والمجلات المؤثرة في أمريكا وبريطانيا : نيويورك ريفيو أوف بوكس ، لندن ريفيو أوف بوكس ، ذا نيشن The Nation ، هاربرز ، إضافة إلى كونه عضوا في هيئات تحرير عدد كبير من المجلات والدوريات الأكاديمية البارزة في أمريكا والعالم .

إنه إذن اسم تصعب مواجهته والتعتيم عليه ، ولم تستطع الدوائر والمؤسسات الصهيونية في أمريكا كتم صوته في الدفاع عن القضية الفلسطينية وكشف زيف الرواية الإسرائيلية والصهيونية عن حقيقة النزوح الفلسطيني عام ١٩٤٨ . ورغم الهجوم الكثيف عليه من قبل هذه الدوائر والمؤسسات الصهيونية ، المؤثرة في الأوساط السياسية والإعلامية الأمريكية ، إلا أن صوت إدوارد سعيد ازداد علوًا بمرور السنوات ، واكتسب حضورا أكبر على الساحتين الأمريكية والعالمية .

هوامش

١ . صدر عنه مؤخرا كتاب بعنوان «إدوارد سعيد : مفارقة الهوية» لبيل أشكروفت وبال أهلوواليا ، والكتاب يناقش ، إضافة إلى إنجاز سعيد البحثي والأكاديمي ، كتاباته الصحفية ومناظراته ومفهومه للهوية .

Bill Ashcroft and Pal Ahluwalia, Edward said: the Paradox of Identity, Routledge, London and New York, 1999.

وكان صدر عنه من قبل عدد من الكتب والأعداد الخاصة من المجلات التي تناقش أفكاره وتأثيره المتعاظم في نظرية الأدب والنظرية الثقافية وما يسمى «سياسات الهوية» . ومن ضمن هذه الكتب نذكر ما يلي :

1. Michael Sprinker (ed.), Edward Said: A Critical Reader, Blackwell, Oxford, 1992.
2. Keith Ansell Pearson, Benita Parry and Judith Squires (eds.), Cultural Readings of Imperialism: Edward Said and the Gravity of History, St. Martin's press, New York, 1997.
3. Boundary 2, Volume 25, Number 2, 1998, Edward Said, a special issue edited by Paul Bove, Duke University Press.

القسم الأول

عن الحملة وأسبابها

إدوارد سعيد وحكاية مقالة فاينر

بدأت الحملة على إدوارد سعيد يوم الحادي والعشرين من شهر آب ١٩٩٩ ، فعلى الصفحة الأولى من الديلي تلغراف لخصت الصحيفة البريطانية اليمينية ، ذات الميول الصهيونية والتي تمتلك صحيفة الجيروزاليم بوست الإسرائيلية وعيّن مالك الصحيفة البريطاني كونراد بلاك ديفيد بار إيلان رئيسا لتحرير الجيروزلازيم بوست (قبل أن يصبح إيلان مستشارا لرئيس الحكومة الإسرائيلية السابق نتنياهو) ، مقالا كتبه كاتب يهودي يدعى جستس رايد فاينر يدعي فيه أن إدوارد سعيد ليس فلسطينيا ولم يقم في مدينة القدس يوما أو يلتحق بمدرسة سان جورج المقدسية . وقد ذهبت الصحيفة البريطانية ، استنادا إلى ما قاله فاينر ، إلى أن أستاذ الأدب الفلسطيني قد «زيّف» قصة حياته ، وإن فاينر سأل شخصا يهوديا يدعى ديفيد عزرا فيما إذا كان يذكر إدوارد سعيد ، الذي يدعي أنه كان زميلا له ، فقال عزرا إنه لا يذكر زميلا له في مدرسة سان جورج بهذا الاسم . وقد قام فاينر للكشف عن «هذا التزييف» بالبحث في حياة سعيد وأهله مدة ثلاث سنوات حيث سأل ما

يقارب المائة من الأشخاص عن سعيد وعائلته ، كما استخدم عددا كبيرا من الباحثين المساعدين للقيام بهذه المهمة الخارقة!

وهكذا ، وقبل أن تُنشر المقالة نفسها في كومنتري Com-mentary ، المجلة اليمينية الصهيونية التي تصدرها الرابطة اليهودية الأميركية ، في شهر أيلول ١٩٩٩ كانت كرة الثلج تكبر إذ نشرت صحيفة نيويورك بوست ، بتاريخ ٢٦ آب ١٩٩٩ ، افتتاحية كتبها (جون) ابن صاحب مجلة كومنتري نورمان بودهوريتز قارن فيها بين إدوارد سعيد وريغوبيرتا مينتش الماركسية الغواتيمالية الحاصلة على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩٢ والتي يقال إنها اختلقت بعض التفاصيل في سيرتها الذاتية .

وقد رد إدوارد سعيد على هذه الادعاءات في مقالة نشرتها صحيفة الأهرام ويكلي المصرية ، بتاريخ ٢٦ آب ١٩٩٩ ، واصفا فاينر بأنه «مدّع» يهدف من وراء حملته المدعومة من اليمين إلى «تحقيق الشهرة على حساب شخص مشهور» ، كما فنّد الأخطاء القاتلة في مقالة فاينر التي لم تميز طبيعة العلاقات العائلية التي تربط أفراد عائلة سعيد . لكن فاينر في مقابلة أجرتها معه مجلة «صالون» ، ١٠ أيلول ١٩٩٩ ، يدعي أن «كل ما فعله يتصل بالمصداقية ، فإدوارد سعيد يلف نفسه بالعلم الفلسطيني ليعفي نفسه من الشك والأسئلة .» وتقول المجلة تعليقا على مقالة فاينر بأن الباحث قد ارتكب خطأ قاتلا عندما كتب أن نبيهة سعيد هي زوجة عم إدوارد فيما هي في الحقيقة عمته وقد تزوجت من ابن عمها ، وكان بيت عائلة سعيد مسجلا باسمها مما يعني أنه كان بيت العائلة يقيم فيه جميع أفراد عائلة إدوارد سعيد الكبيرة .

وقد اتصلت مجلة «صالون» بصديق إدوارد سعيد كريستوفر

هيتشنز الذي قال إن الكثير من الأمور المتعلقة بملكية بيت العائلة في القدس سوف توضحها مذكرات إدوارد «خارج المكان» ، ومن ضمنها أن والد إدوارد ، وديع سعيد ، لم يكن يحب أن يسجل شيئا من أملاك العائلة باسمه . ويعلق هيتشنز على عدم انتظار فاينر صدور مذكرات إدوارد سعيد في ٢٤ أيلول ١٩٩٩ ، ليقارن ما جاء في مقالته مع ما يكتبه سعيد في المذكرات ، بأن فاينر أراد بذلك تحقيق مقاصده الخبيثة . وقد أكد محرر مجلة النيو ريببليك New Republic الأميركية تشارلز لين أن فاينر سبق أن عرض مقالته المذكورة على المجلة ، وعندما أخبرته المجلة أن مذكرات إدوارد سعيد سوف تظهر قريبا وأنهم يفضلون أن يطلع فاينر على المخطوطة قبل الاتفاق على نشر المقالة رفض فاينر مما جعل المجلة تعتذر عن نشر المقالة . ولدى فشله في إقناع النيو ريببليك بنشرها أخذ فاينر المقالة لمجلة كومنتري المعروفة بميولها الصهيونية اليمينية والتي سبق أن نشرت مقالة ضد إدوارد سعيد عام ١٩٨٨ تصفه بـ «بروفيسور الإرهاب» .

في رد على ادعاءات فاينر قامت مجلة كاونتر بنتش Counter Punch الأمريكية في عددها الصادر في ١ أيلول ١٩٩٩ بالاتصال بهيج بوياجيان وهو مصرفي أرمني متقاعد في الرابعة والستين من العمر يعيش في نيوجيرسي ، وكان زميلا لإدوارد سعيد في المدرسة ، الذي قال إن فاينر اتصل به في ربيع هذا العام من مدينة القدس وأخبره أنه يعد مقالة عن مدرسة سان جورج . وأثناء الحديث سأله فاينر إذا كان يتذكر بقية زملائه في الصف خلال دراسته في سان جورج . وعندما ورد ذكر إدوارد سعيد أخبره

بوياجيان بأن سعيد كان زميلا له في مدرسة سان جورج ، ولكن المدرسة أقفلت بعد عامين من نكبة ١٩٤٨ ولذلك فقد تخرج إدوارد سعيد من كلية فكتوريا في القاهرة . وتقول المجلة إن بوياجيان استغرب إغفال فاينر ما دار بينهما في مقالته في كومنتري ، معيدا هذا الإغفال إلى أن «أشخاصا مثل فاينر لديهم جدول أعمال ولكنهم لا يملكون أية مبادئ .» كما اتصلت مجلة كاونتر بنتش بأستاذ إدوارد في «مدرسة سان جورج» ميشيل مرمورة ، وهو الآن أستاذ فخري متقاعد في جامعة تورونتو ، الذي قال إنه يتذكر إدوارد الذي كان طالبا شقيا ، وإن والده (والد مرمورة) قد قام بتعميد الطفل إدوارد في الكنيسة الأنجليكانية في القدس . ويذكر ميشيل مرمورة في حديثه للمجلة أن عائلة سعيد هي من بين العائلات الفلسطينية العريقة .

في مقالته في مجلة كومنتري يحتاط فاينر ، بعد أن ينكر على إدوارد سعيد أنه درس في مدرسة سان جورج ، ويقول : « لا أحد يستطيع أن ينكر إمكانية أن يكون إدوارد سعيد قد درس بشكل متقطع في المدرسة .» وهي جملة تصفها مجلة كاونتر بنتش بأنها تشبه عمل لص يحاول أن يزيل بصمات أصابعه عن حافة النافذة . كما أنه يذكر في نهاية مقالته أنه على الرغم من كونه يعمل في مركز القدس للدراسات العامة ، الذي تموله المؤسسة التابعة لعائلة مايكيل ميلكين التي تعيش في لوس أنجيلوس ، فإنه قد عكف على البحث في موضوع إدوارد سعيد بصورة شخصية . لكن رسالته ، التي بعثها إلى هيغ بوياجيان ليشكره على التعاون معه في بحثه «الأكاديمي» ، كانت مكتوبة على الورق الرسمي للمركز .

ومع أن فاينر يتفاخر بأنه تكلم مع أكثر من ٨٠ شخصا فإنه لم يذكر في مقالته اسم واحد من هؤلاء الأشخاص . إنه لا يتجاهل فقط اسم بوياجيان بل إنه يتجاهل اسم اليهودي المصري أندريه شارون الذي كتب رسالة عنيفة إلى صحيفة النيويورك تايمز التي نشرت في نهاية شهر آب ١٩٩٩ تحقيقا عن «اكتشافات فاينر بخصوص سيرة إدوارد سعيد» .


يقول أندريه شارون ، الذي كان زميلا لإدوارد سعيد في كلية فكتوريا في القاهرة ، من ضمن ما يقوله :

١ . لقد كان إدوارد عربيا فلسطينيا كما كنت يهوديا مصريا .

٢ . إن العائلة الكبيرة الممتدة هي المعيار في منطقة الشرق الأوسط . وأن يكون إدوارد سعيد قد قضى فترات من حياته مع أفراد مختلفين من العائلة ، في بيوت مختلفة في بلدان مختلفة وفي أوقات مختلفة ، أمر لا يدعو إلى الاستغراب على الإطلاق . إنها ظاهرة ثقافية بارزة بين الشرائح الاقتصادية والأوساط الاجتماعية المختلفة في الشرق الأوسط .

٣ . رغم أنني أختلف بشدة مع إدوارد سعيد حول الكثير من القضايا ، إلا أنني أؤيد بشدة رده في النيويورك تايمز على ما طرحه فاينر بخصوص سيرته الذاتية ، وأقول إن ما فعله فاينر بحث بلا معنى ولا طائل من ورائه .

٤ . إن القضية المحورية في هذا النقاش هي أن الفلسطينيين قد طردوا من بلادهم (كَما طرد اليهود من البلدان العربية .) وهي حقيقة أساسية يجب أن نقر بها ونواجهها .



مقالة فاينر

«بيتي العتيق الجميل» وأكاذيب أخرى اختلقها إدوارد سعيد

جستَس رايد فاينر

ترجمة : فخري صالح

١

من بين المتكلمين باسم القضية الفلسطينية في أيامنا ليس هناك شخص أكثر فصاحة ، أو أكثر شهرة ، من إدوارد و . سعيد . إنه أستاذ كرسي الأدب الإنجليزي والأدب المقارن في جامعة كولومبيا[١] ، ومؤلف غزير الإنتاج ، يؤلف كتبا[٢] ويكتب مقالات[٣] أكاديمية[٤] وصحفية ، كما أنه يحاضر في جامعات عديدة[٥] ويقوم بالتعليق في الإذاعة والتلفزيون[٦] ، كما أنه عمل كوسيط دبلوماسي[٧] ، وشاهدٍ أمام الكونغرس[٨] [الأمريكي] . وقد كُتبت عنه مقالات لا تحصى ، وأجريت معه حوارات لا حصر لها[٩] . لقد طبّقت شهرة إدوارد سعيد ـ المولود في القدس ١٩٣٥ ـ الآفاق لا بسبب كونه محاورا من طراز رفيع ، ولكن لكونه ، عندما يتعلق الأمر بدفاعه المتحمس عن حقوق الفلسطينيين العرب

(وهجومه العنيف على إسرائيل لانتهاكها تلك الحقوق) ، شخصا عنيفا متعصبا أخلاقيا .

ويمكن أن نتبين الحظوة التي يلقاها سعيد في الأوساط الفلسطينية من الاحتفال الأخير الذي أقامه على شرفه «معهد التراث الفلسطيني» في الولايات المتحدة والذي حضره أكثر من ٤٥٠ من الدبلوماسيين العرب والأميركيين من أصل عربي[١٠] ، وكذلك حضور أكثر من ١٠٠٠ شخص لمحاضرة ألقاها في بيت لحم العام الماضي[١١] . إن حضوره بارز أيضا بين الأكاديميين والمثقفين الأمريكان والأوروبيين الذين يثنون بإفاضة على دراساته الأدبية ويبدون الإعجاب بموقفه السياسي غير المجامل . فمن بين دراساته أثر كتابه الأشهر **الاستشراق** (١٩٧٨)[١٢] ، بأطروحته الجريئة التي تقول إن الدراسة الغربية للإسلام (وللثقافات الأخرى كذلك) هي شكل من أشكال «الاستعمار» ، تأثيرا جذريا عميقا على الدراسات الأدبية في الكليات والجامعات ، كما غيّر من طرق تفكير المسلمين بالإسلام كذلك . أما في حقل السياسة فإن رؤية سعيد لقضية الشرق الأوسط متشددة حتى إنه في السنوات الأخيرة قد تحول من نصير لياسر عرفات إلى معارض شرس له متهما رئيس منظمة التحرير بأنه خان ٥٠ سنة من الأحلام الفلسطينية بتوقيعه اتفاق أوسلو مع إسرائيل .[١٣]

يمثل سعيد نموذج الأكاديمي الملتزم ، وقد كان نشطا سياسيا منذ نهاية الستينيات عندما أسس ، مع آخرين ، جمعية الخريجين العرب من الجامعات الأمريكية[١٤] المتقدة الحماس للقضية الفلسطينية . وفي عام ١٩٧٤ ترجم سعيد ، وأعاد كتابة ، خطاب

عرفات الشهير أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة حيث لوح قائد منظمة التحرير ببندقية وغصن زيتون[١٥] ؛ وفي حقبة رئاسة كارتر نقل أيضا بعض الآراء والمقترحات بين عرفات والإدارة الأمريكية ، كما شارك في فترة رئاسة ريغان في اللقاء ، الذي عُدّ اختراقا هاما ، بين عضو في المجلس الوطني الفلسطيني ووزير الخارجية جورج شولتز[١٦] ؛ كما أنه هو نفسه كان لسنوات عديدة عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني[١٧] . ومن بين كتب سعيد التي تتناول القضية الفلسطينية : **بعد السماء الأخيرة : حيوات فلسطينية** (١٩٨٦) ؛ **لوم الضحايا : الأبحاث الأكاديمية المزيفة والقضية الفلسطينية** (١٩٨٨) ؛ **القلم والسيف** (١٩٩٤) ؛ **سياسات السلب : الكفاح من أجل حق تقرير المصير** (١٩٩٥) ؛ **السلام وما يثيره من قلق : مقالات عن فلسطين وعملية السلام في الشرق الأوسط** (١٩٩٦) .

لا شك أن معظم السلطة الأخلاقية التي يمتلكها إدوارد سعيد مستمدة من سجله الشخصي والثقافي المميز[١٨] . وهو بصفته تجسيدا حيا للقضية الفلسطينية كتب الكثير من الكتب والمقالات وصور الكثير من الأفلام عن ولادته وطفولته ودراسته في فلسطين[١٩] ساردا على القراء بدايات حياته المثالية[٢٠] ثم الانتهاك العنيف لهذه الحياة والفردوس المفقود الذي يترجع فيه صدى الألم الشخصي الذي يمثل استعارة قوية لوضع الفلسطينيين بعامة[٢١] . وكما يقول سلمان رشدي ، في ثنائه على كتاب **بعد السماء الأخيرة** ، فإن سعيد إذ يكتب عن «صراعه الداخلي : عن الألم المبرح بسبب العيش بعيدا عن وطنه ، في المنفى»[٢٢] «يمكننا من مشاركة شعبه الشعور بالألم» .[٢٣]

يعرض سعيد ألمه الشخصي وآلام شعبه بصورة حية في الفيلم الوثائقي «بحثا عن فلسطين» الذي كتبه سعيد ورواه بنفسه وبثته هيئة الإذاعية البريطانية عام ١٩٩٨ . ويصور الفيلم ، الذي بث في محطات التلفزيون في العالم ليتزامن مع مرور الذكرى الخمسين لنكبة فلسطين عام ١٩٤٨ وبث مؤخرا في الولايات المتحدة ، سعيداً وهو يقف خارج البيت الذي ولد فيه ويقع الآن في رقم ١٠ شارع برينر في القدس الغربية .

لكن ذكر ذلك المكان الذي ولد فيه سعيد يطرح علينا مشكلة . إن سعيد يعرّف رسالته كمثقف بأنها «قول الحقيقة دون أي تحيز»[٢٤] ، ويعلن كذلك أن واجبه كمثقف يملي عليه أن «يقول الحقيقة بوضوح ، وبصورة مباشرة ، وأمانة ما أمكنه ذلك»[٢٥] . وهذا يعني أنه في سرده لوقائع سيرة حياته خلال السنوات الماضية لم يقل إلا الحقيقة الواضحة المباشرة التي تعكس الأمانة بالفعل . لكنه بدلا من أن يفعل ذلك روى ، وشجع الآخرين على أن يرووا ، نسخة مشوهة من الحقيقة يغلب عليها الخداع التام والتعتيم المحكم على بعض وقائع حياته بحيث خدم ذلك برنامجه الأيديولوجي الذي يتضمن بصورة خاصة الترويج لدعاوى اللاجئين الفلسطينيين ضد إسرائيل .

لقد أنعمت النظر ، خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، في السيرة الذاتية لإدوارد سعيد وما يتعلق من هذه السيرة بطفولته في فلسطين[٢٦] ـ وهي طفولة أكد سعيد بصورة مستمرة[٢٧] أنها تشكل بؤرة تكوين فكره السياسي ، وكذلك هويته السياسية الرمزية كلاجئ فلسطيني . وقد أخذني البحث ، وهو رحلة ممتعة بحد

ذاتها، للتنقيب أحيانا في سجلات وملفات عامة مجهولة في خمس دول تقع في قارات أربع، ولإجراء مقابلات مع العديد من أقارب سعيد وجيرانه ورفاقه في المدرسة وزملائه في العمل. وفي الواقع أن كل ما توصلت إلى معرفته، وكل الاستنتاجات التي سأوردها لاحقا، تناقض القصة التي حكاها سعيد عن المرحلة المبكرة من حياته.

ولكي تتعقد الأمور أكثر فأكثر علمت بعد أن أنهيت مخطوطة هذه الدراسة أن سعيد سينشر كتابا جديدا من المذكرات بعنوان **خارج المكان**(٢٨) ـ وسوف يكون في متناول القراء في نهاية هذا الشهر. ومن المدهش أن هذا الكتاب الجديد ـ وسوف أتحرى الأمر فيما بعد ـ يعيد النظر بصورة شاملة بالحكاية الشخصية لسعيد، التي سمعناها طيلة السنوات السابقة، جاعلا عناصرها مطابقة، إلى حد كبير، للحقيقة. لكنه يتجاهل في الوقت نفسه ثلاثين عاما من الخداع البارع المتقن.

لكنني أستعجل الأمور قليلا. فلكي نستطيع حل خيوط هذه الأحجية علينا أن نبدأ بفحص النسخة المتداولة من سيرة حياة إدوارد سعيد ونرى في أية مواضع، وكيف، تنحرف تلك النسخة عن النسخة الحقيقية.

٢

لكي نتعرف على النسخة المتداولة لا نحتاج إلى شيء سوى قراءة مقالة عن سعيد تنضح بالإعجاب ظهرت منذ سنة تقريبا في

صحيفة النيويورك تايمز («فلسطيني في مواجهة الزمن» لجاني سكوت ، ١٩ أيلول ١٩٩٨)[٢٩] . ونورد فيما يلي الفقرة المتصلة بموضوعنا من تلك المقالة :

«ولد السيد سعيد في القدس وقضى السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حياته هناك . وهو الابن الأكبر والذكر الوحيد لرجل أعمال مسيحي فلسطيني ناجح . هاجرت العائلة إلى القاهرة [في مكان آخر من هذه المقالة تستخدم الكاتبة كلمة «هربت»] في نهاية عام ١٩٤٧ وذلك قبل أشهر خمسة من اندلاع الحرب بين الفلسطينيين العرب واليهود بسبب الخلاف حول خطة تقسيم فلسطين .»

أما كتاب «السير الذاتية السنوي» (١٩٨٩) فيورد خمس صفحات عن سعيد ، نقتبس منها ما يلي :

«ولد إدوارد و . سعيد في القدس ، في ما كان يدعى من قبل فلسطين ، في ١ تشرين ثاني ١٩٣٥ . وهو الابن الأكبر والذكر الوحيد لوديع سعيد ، رجل الأعمال الناجح . . . عاشت العائلة في ضاحية غنية في القدس الغربية . . . وقد عُمّد سعيد في الكنيسة البروتستانتية ودرس في مدرسة سان جورج ، وفي المدرسة الإنجيلية الابتدائية حيث مارس ، ضمن الأنشطة غير الصفية ، ركوب الخيل والملاكمة وألعاب الجمباز والعزف على البيانو .

. . . في سن الثانية عشرة أجبر إدوارد سعيد على استخدام تصريح للذهاب من بيته إلى المدرسة . وهو يتذكر ، في مقابلة مع

نيويورك ماغازين (٢٣ كانون ثاني ، ١٩٨٩) ، أن «الوضع كان خطرا وغير مريح» . في كانون أول ١٩٤٧ تركت عائلة سعيد القدس واستقرت في القاهرة (مصر) . . . يكتب سعيد في كتابه **بعد السماء الأخيرة : حيوات فلسطينية** : «لقد تأسست دولة إسرائيل ، ودمرت فلسطين .»[٣٠]

ولكن لماذا نعتمد على كلام الآخرين؟ إن هاتين الفقرتين القصيرتين تلخصان ما يردده سعيد عن المرحلة المبكرة من حياته :

«ولدت في شهر تشرين ثاني ١٩٣٥ في الطالبية ، وهو حي حديث الإنشاء كان يسكنه الموسرون العرب في القدس . مع نهاية ١٩٤٧ ، وقبل أشهر من سقوط الطالبية في أيدي القوات اليهودية ، هاجرت مع عائلتي إلى القاهرة» («فلسطين : فيما مضى والآن» في Harper's ، كانون أول ١٩٩٢)[٣١]

ولدت في القدس وأمضيت معظم سنواتي ، المؤثرة في تكويني لاحقا ، هناك ، ثم أمضيت السنوات التالية في مصر بعد أن أصبحت عائلتي من اللاجئين .» («بين عالمين : إدوارد سعيد يعطي معنى لحياته» في London review of Books ، ٧ أيار ١٩٩٨)[٣٢]

أتذكر فترة صباي ، الاثني عشر عاما أو الثلاثة عشر الأولى في فلسطين قبل أن أتركها . (القلم والسيف)[٣٣]

ويتكرر هذا الكلام عن المرحلة المبكرة من حياة سعيد في كتاباته وكتابات الآخرين عنه.[٣٤] (ونحن نقرأ على موقع the Nation، وهي المجلة التي يعد سعيد ناقدها المتخصص بالموسيقى ما يلي: «عام ١٩٤٨ أصبح سعيد وعائلته لاجئين في القاهرة.»)[٣٥] ويزوده هذا التعريف بموقعه كـ«منفي» نموذجي، فهو، مثله مثل شعبه بعامة، حيل بينه وبين وطنه في حادث مفاجئ من أحداث العنف التاريخي. لكن باستثناء حدث ولادته في القدس فإن كل ما ذكره هو مجرد تزييف.

٣

فيما يلي سنعرض الحقيقة بقضها وقضيضها: لقد نشأ وديع سعيد (وهو يدعى وليم أيضا)[٣٦]، والد إدوارد، في مدينة القدس وتعلم في مدارسها ولكنه هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩١١. وخلال الحرب العالمية الأولى خدم في القوات الأمريكية في أوروبا قبل أن يعود إلى الشرق الأوسط بجواز سفر أمريكي ويبدأ عملا ناجحا فيما بعد[٣٧]. وقبل تسع سنوات على الأقل من ولادة ابنه إدوارد عام ١٩٣٥ كان وديع قد استقر في القاهرة بصورة دائمة. وكما جاء في الطبعة الفرنسية من الدليل المصري عام ١٩٢٦ فإن وديع كان يمتلك شركة مكتبة العلم (ستاندارد) Standard Stationery Company. وقد ازدهرت أحوال الشركة ففتحت فرعا لها في الإسكندرية عام ١٩٢٩ كما فتحت في السنة نفسها فرعا آخر لها في القاهرة[٣٨].

وقد انتقلت أم إدوارد سعيد هيلدا (موسى)، وهي من أصل لبناني، إلى القاهرة عندما تزوجت أباه عام ١٩٣٢[٣٩]، وظلت العائلة تعيش في القاهرة منذ ذلك الحين في عدد من البيوت الفخمة الواسعة، وكانت البيوت الثلاثة الأخيرة التي سكنتها العائلة في حي الزمالك الراقي الذي يقع في جزيرة على النيل[٤٠]. ويمكن لنا أن نتتبع إقامة العائلة وحقائق أخرى متعلقة بها في عدة طبعات متوالية من دليل القاهرة العام ودليل هواتف مدينة القاهرة، وفي كتاب «دليل شخصيات مصر والشرق الأوسط»، وفي مصادر أخرى غيرها[٤١]. وقد أشارت صديقة قديمة للعائلة، الدكتورة هدى الجندي، وهي أستاذة اللغة الإنجليزية في جامعة القاهرة، في مقابلة معها بأن آل سعيد كانوا جيرانا لهم في ١ شارع عزيز عثمان منذ عام ١٩٤٠ وأنهم كانوا يقيمون في الطابق العلوي[٤٢]. بدءا من عام ١٩٤٩ سجلت شركة «مكتبة العلم» في دليل التجارة المصرية برأسمال قدره ١٢٠ ألف جنيه مصري.

لكن ماذا بخصوص القدس؟ في تلك المدينة كان يسكن شقيق وديع سعيد، المدعو بولص يوسف، وزوجته نبيهة وأولادهما الخمسة[٤٣]. وقد كانت عائلة وديع تقوم بزيارة أقربائها في مدينة القدس بصورة دورية[٤٤]. وفي شهر تشرين ثاني من عام ١٩٣٥، وأثناء واحدة من هذه الزيارات، ولد إدوارد سعيد. وفي شهادة الميلاد الصادرة عن وزارة الصحة في الانتداب البريطاني سجل والداه أن عنوانهما الدائم هو القاهرة، معترفين بذلك أنهما لا يملكان عنوانا في فلسطين حين تركا خانة العنوان المحلي فارغة[٤٥]. كما أن والدي سعيد تركا خانة العنوان المحلي فارغة حين عُمّد

إدوارد في الكنيسة بعد سنتين من ولادته[٤٦] . ومن بين الـ ٢٩ دليلا للهاتف والعمل في القدس وفلسطين ، المطبوعة ما بين ١٩٣١ و١٩٤٨ ، لم أعثر إلا على اسمي بولص وزوجته في أكثر من نصفها . وليس هناك ذكر لوالدي سعيد في أي من هذه السجلات المطبوعة بالإنجليزية والعبرية والعربية[٤٧] .

٤

أما بالنسبة لبيت الطالبية فتلك قصة وحدها تستحق النظر . في مقالته في مجلة «هاربرز»[٤٨] ، وفي نسخة موسعة من المقالة نفسها نشرتها صحيفة الأوبزيرفر اللندنية[٤٩] ، وفي استعادات أخرى للموضوع نفسه ، يروي سعيد وقائع زيارته العاطفية في أواخر ١٩٩٢ لذكريات طفولته في القدس وبصورة خاصة تلك الذكريات في ١٠ شارع برينر ، محرفًا هذه الذكريات ومعدلا فيها . مقالة الأوبزيرفر كانت مصحوبة بصورة مكبرة للمؤلف وهو يجلس أمام بيت من الحجر ، وقد كتب تحت الصورة : «إدوارد سعيد أمام بيت عائلته القديم في القدس .»[٥٠]

ويظهر سعيد وابنه وديع أمام البيت نفسه في الفيلم الوثائقي «بحثا عن فلسطين» الذي صورته هيئة الإذاعة البريطانية . وقد شدد على الأهمية الرمزية للبيت في الاحتفال التكريمي الذي أقامه معهد التراث الفلسطيني لسعيد ، حيث قدم له المعهد لوحة تصور البيت في نهاية الاحتفال[٥١] . وفي مقابلة أجرتها معه «جيروزاليم تايمز» ، وهي صحيفة فلسطينية تصدر بالإنجليزية ، يقول سعيد ما يلي :

«أشعر بإحباط شديد عندما أتذكر بيتي الجميل المحاط بأشجار الصنوبر والبرتقال في الطالبية غربي القدس ، وقد تحول هذا البيت إلى مقر لـ«سفارة كنسية» . لقد ذهبت إلى هناك قبل عدة أيام وأخذت بعض الصور» .(٥٢)

لكن انتظروا . حسب ما يقوله سعيد فإنه خلال زيارته إلى هناك عام ١٩٩٢ لم يستطع أن يتعرف على «بيت العائلة» إلا بواسطة «خارطة رسمها لي ابن عمتي [الذي يقيم في كندا] من الذاكرة مع نسخة مصورة من سند الملكية» .(٥٣) إذا كان هذا صحيحا ، إذا كان سعيد يحمل صورة عن سند ملكية البيت حقا ، فلا بد أنه لاحظ عدم وجود اسم والديه في سند الملكية ، أو اسم أخواته ، أو اسمه هو ، فالبيت لم يكن بيتهم ، وليس بيتهم الآن .

في السجلات التي يحتفظ بها مكتب دائرة الأراضي في القدس خلال فترة الانتداب يظهر اسم البيت لأول مرة في ١٤ شباط ١٩٤١(٥٤) . تقول السجلات إن يوسف سعيد (جد إدوارد سعيد) قد سجل بعض أملاكه باسم السيدة بولص يوسف سعيد (عمة إدوارد) وأسماء أبنائها الخمسة(٥٥) . هذا كل ما نعثر عليه في السجلات ، فلا ذكر لوالدي سعيد بخصوص الملكية .

لم تملك عائلة إدوارد سعيد الصغيرة أية عقارات في ١٠ شارع برينر ، كما أنه لم يسكن هو أو عائلته في ذلك المكان(٥٦) . في الوقت نفسه لم تسكن عمته أو أبناؤها هناك قبل ١٩٤٢(٥٧) . فبعد أن بني البيت في الثلاثينات(٥٨) قسم إلى شقتين(٥٩) كل منهما لها مدخل مستقل ؛ وفي عام ١٩٤٢ بنيت شقة ثالثة في طابق التسوية(٦٠) . ومن عام ١٩٣٨ إلى عام ١٩٤٦ (أي منذ كان عمر

إدوارد سعيد ثلاث سنوات إلى أن بلغ الحادية عشرة من عمره) أجّر الطابق العلوي[٦١] لقنصلية مملكة يوغوسلافيا ، ومن عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٢ للجمهورية اليوغوسلافية الاتحادية الاشتراكية[٦٢] . وقد استخدم الطابق كمكتب وبيت ؛ وخلال الحرب العالمية الثانية[٦٣] سكن ملك يوغوسلافيا المنفي بيتر الثاني في البيت مدة ستة أسابيع تقريبا[٦٤] .

ليس مستغربا البتة أن سعيد إذ «يتذكر عدد الغرف في بيته حيث كان يقرأ شيرلوك هولمز وطرزان ، وحيث كان يقرأ هو وأمه شكسبير»[٦٥] ، لا يتذكر أبدا وجود القنصلية اليوغوسلافية في الطابق العلوي ، ولا يتذكر المراجعين من طالبي التأشيرات ، والدبلوماسيين ، والسياسيين ومن بينهم ملك يوغوسلافيا نفسه ، ولا يتذكر السيارات الرسمية الفخمة التي كانت تتوقف أمام البيت لغايات رسمية أو للاحتفال بيوم استقلال يوغوسلافيا! في ٢٩ تشرين ثاني ١٩٤٧ ، وهي الليلة التي صادقت فيها الأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين ، وقبل أسبوعين تقريبا من الوقت الذي أخبرنا فيه سعيد أن عائلته أجبرت على الرحيل إلى القاهرة ، أقيم احتفال حضره ، ضمن شخصيات هامة كثيرة ، عمدة القدس البريطاني[٦٦] ؛ كما حضرته غولدا مائير ، التي أصبحت فيما بعد مسؤولة الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية[٦٧] ؛ وحسين الخالدي ، سكرتير اللجنة العربية العليا[٦٨] ؛ و معظم النخبة السياسية والاجتماعية في المدينة[٦٩] .

أما بخصوص الطابق السفلي ، وهو المدخل الرئيس للبيت ، فقد

استأجرته القنصلية الإيرانية في الفترة الواقعة بين ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨[٧٠] . وبعد عام ١٩٣٨ استأجر الفيلسوف الألماني ـ اليهودي اللامع مارتن بوبر ، وزوجته وحفيدتاه الصغيرتان اللتان كانتا في سن المراهقة ، الطابق السفلي وطابق التسوية ، وكانوا جميعا هاربين من ألمانيا النازية للتو[٧١] . وقد أجبرت عائلة مارتن بوبر على ترك البيت في بدايات عام ١٩٤٢ (وكان إدوارد سعيد حينها في السابعة من العمر) بسبب نزاع مع المالك ، وهي نبيهة زوجة بولص سعيد التي أخلت بالعقد وادعت أنها تريد أن تستعمل البيت لأغراض السكن ، وقد ربحت القضية وأخلت عائلة بوبر المكان[٧٢] . وتتذكر حفيدتا مارتن بوبر ، اللتان سمعت منهما الحكاية ، اسم نبيهة سعيد واثنين من أبنائها : يوسف وروبرت . ويتذكر واحد من ساكني البناية ، خلال السنوات الأخيرة من الانتداب البريطاني ، جورج وهو ابن آخر للعائلة[٧٤] . ولا أحد يتذكر إدوارد أو أيا من أخواته[٧٥] .

ليس مستغربا ، كذلك ، أن لا يلاحظ إدوارد سعيد أن مارتن بوبر كان يسكن في البيت! في الحقيقة أن الأمر ليس كذلك . لقد كتب سعيد عام ١٩٩٢ أنه سمع منذ سنوات أن «مارتن بوبر قد سكن المنزل لمدة من الزمن بعد عام ١٩٤٨»[٧٦] . وفي السنة الماضية ، في محاضرة ألقاها في جامعة بير زيت في الضفة الغربية ، قام بتضخيم هذا الظن قائلا بحدة :

«لقد سكن البيت ، الذي هاجرت منه عائلتي ، الفيلسوف اليهودي الكبير مارتن بوبر ، الذي سكن البيت لفترة من الزمن .

وهو رغم كونه داعية للتعايش بين العرب واليهود إلا أنه لم يمانع أن يسكن بيتا عربيا طرد منه أصحابه .»[٧٧]

لكن الحقيقة هي عكس ذلك تماما : فعمة سعيد هي التي طردت عائلة بوبر من البيت[٧٨] ، وهي حادثة ـ لا تنسى بالتأكيد ـ وقد وقعت في الفترة التي كان فيها إدوارد يعيش في البيت نفسه قبل وقوع حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ . لكن ليس هناك أي غرابة أنه لا يتذكر حادثة إخلاء عائلة بوبر من البيت ، ولا يتذكر عملية نقل المكتبة التي كانت تضم أكثر من ١٥ ألف كتاب[٧٩] ، ولا يذكر ذلك في ذكرياته الشديدة الدقة عن «بيته الجميل العتيق . . . في الطالبية .» لقد كانت عائلة بوبر موجودة هناك مع المكتبة . لكن سعيد لم يكن .

٥

ومع ذلك فلا شيء مما سبق يدفعنا إلى إنكار إمكانية أن تكون عائلة إدوارد سعيد الصغيرة قد استقرت لفترات زمنية قصيرة بعد عام ١٩٤٢ ، أي بعد طرد عائلة بوبر وسكن نبيهة سعيد وأطفالها الخمسة[٨٠] ، مع أبناء العمة في الطابق الأول من البيت في ١٠ شارع برينر . ففي هذا الوقت لا بد أن العائلتين قد أصبحتا كبيرتين في حين أن البيت لم يكن فيه إلا أربع غرف نوم[٨١] . ولنفترض أن غرفتين منها تركتا للآباء والأمهات فإن على الغرفتين الباقيتين أن تستوعبا عشرة أطفال ، دون أن نضع في حسابنا الأجداد أو الخدم والسائقين والطباخين وغيرهم . إن من الصعب أن نتصور أن

وديع سعيد الذي اعتاد العيش في مساحات واسعة يستطيع أن يتحمل التواجد في مكان ضيق كهذا(٨٢) . وبهذا نصل إلى عنصر آخر من عناصر إعادة تركيب سعيد لطفولته المقدسية : أي ما يتعلق بدراسته .

حسب ما يقول سعيد بنفسه فإنه درس المرحلة الابتدائية في مدرسة سان جورج في القدس «مع بقية الأفراد الذكور في العائلة» (كما ورد في مقالته التي نشرها في مجلة هاربرز)»(٨٣) . وفي الفيلم الوثائقي الذي أنتجته هيئة الإذاعة البريطانية نرى سعيد وهو يذرع أرجاء المدرسة التي لا زالت موجودة حتى الآن»(٨٤) . وفي مكتب المدير نراه يقلب صفحات سجل طلبة المدرسة الجلدي القديم ، وتتوقف الكاميرا عند اسم طالب يهودي يدعى ديفيد عزرا الذي يقول سعيد إنه يتذكره جيدا(٨٥) . ويشير سعيد بإيجاز إلى ديفيد عزرا في مذكراته التي ظهرت مؤخرا تحت عنوان **خارج المكان**(٨٦) .

من اللافت للانتباه أننا في الفيلم الوثائقي «بحثا عن فلسطين» لا نشاهد ولا نسمع شيئا عن وجود اسم إدوارد سعيد في سجلات سان جورج . وفي الحقيقة أن اسم سعيد لا يظهر في المجلد الذي صورته الكاميرا ولا في المجلدين الآخرين من سجلات المدرسة مما يؤكد أنه لم يلتحق بالمدرسة كما يدعي(٨٧) . كما أن ديفيد عزرا ، وهو يدعى الآن ديفيد ابن عزرا ، لا يتذكر أي شيء عن طالب اسمه إدوارد سعيد رغم أنه عدد لي عام ١٩٩٨ أسماء معظم أبناء صفه في سان جورج . ولم تفلح صور طفولة إدوارد سعيد ، التي

نشاهدها في فيلم هيئة الإذاعة البريطانية ، ولا الصور القديمة لأبناء صفه ، في تذكير ابن عزرا به . إن سعيد يدعي ، في الفيلم الوثائقي رغم ذلك ، أنهما كانا يجلسان معا في مقاعد الصف الأخيرة . لكن ابن عزرا ، بسبب ضعف بصره ، كان يجلس دائما في المقاعد الأمامية[٨٨] .

لكن ما ذكرناه سابقاً لا يجعلنا ننكر رغم ذلك أن سعيد كان طالبا مؤقتا في مدرسة سان جورج عندما كان يأتي لزيارة أبناء عمته في القدس . وقد يكون عرف ديفيد عزرا وآخرين في المدرسة دون أن يكون قضى فترات طويلة فيها أو يكون مسجلا في سجلاتها . لكن احتمالا بسيطا كهذا لا يتطابق مع النسخة الشائعة من سيرة حياة سعيد إلى أن بلغ سن الثانية عشرة . وها نحن نقتبس منه ثانية : «ولدت في القدس وأمضيت معظم سني عمري الأولى هناك ، ثم في مصر عندما أصبحت عائلتي كلها من المهاجرين بعد ١٩٤٨»[٨٩] .

٦

دعونا ننظر الآن إلى الجزء الأخير من الجملة : أي إلى ظروف مغادرة عائلة سعيد القدس كـ«لاجئين» إلى القاهرة ، وقد كرر سعيد أكثر من مرة أن ذلك حدث في منتصف كانون أول ١٩٤٧ .

أولا لننظر إلى النسخة الأصلية . في استعادته لتلك الأيام المشؤومة يقول سعيد (وكلامه مسجل في سرد سيرته الشخصية في الكتاب السنوي للسير الشخصية)[٩٠] إنه هو الطفل ابن الثانية

عشرة كان عليه أن يحمل تصريحا للمرور عبر ثلاثة حواجز أمنية بريطانية للتنقل بين بيته في الطالبية ومدرسته سان جورج في شرقي القدس[٩١] . لكن ما جعل أسرته تغادر «فزعة» ، كما يقول سعيد ، هو شيء أكثر إثارة للرعب : ففي شهر كانون أول «تجولت شاحنة يهودية مزودة بمكبر للصوت وهددت العرب طالبة منهم مغادرة الجوار» (مقابلة مع روبرت ماركاند في الكريستيان سيانس مونيتور ، ٢٧ أيار ، ١٩٩٧)[٩٢] . وبمعنى آخر فإن رحيل عائلة سعيد كان جبريا ، نتيجة لبدء الصهاينة في عملية سلب البلاد كلها وطرد السكان الفلسطينيين العرب منها[٩٣] .

لكن لا شيء من هذا يصمد للفحص والتدقيق .

فلو أن سعيد ووالديه كانوا يعيشون بصورة دائمة في فلسطين قبل عام ١٩٤٧ فسوف يكونون قد تعودوا ، مثلهم مثل أي مواطن في مدينة القدس ، على استصدار التصاريح الخاصة للمرور عبر الحواجز التي يحرسها الجنود البريطانيون[٩٤] ، وهو وضع غير مريح و«خطر» ، كما وصفه سعيد ، ولكن قصد منه تسهيل عملية البحث عن المتسللين والأسلحة المهربة ، ومنع اندلاع العنف بين العرب واليهود ، وحماية الموظفين البريطانيين[٩٥] . إضافة إلى ذلك فإنه لم يكن مطلوبا من إدوارد سعيد في سن الثانية عشرة أن يحمل تصريحا لكي يذهب إلى المدرسة أو يعود منها ، وكما قال ديفيد بن عزرا (وآخرون ممن عايشوا تلك المرحلة) فإن زي مدرسة سان جورج ، أو حقيبة الكتب ، كان كافيا ليمر الطالب عبر الحواجز[٩٦] .

أما بخصوص الشاحنة ، التي تحمل مكبرا للصوت مهددة العرب ، فإن أمرها معقد قليلا .

يقول المعاصرون لتلك الفترة إن العلاقة بين اليهود والعرب[٩٧] ، في حي الطالبية الذي كان يسكنه الأغنياء من جنسيات وأعراق مختلفة ، كانت جيدة[٩٨] . وقد كان الحي ، استنادا إلى ما يقوله حاكم القدس البريطاني في تلك الفترة ، «مقسما بصورة عادلة» بين اليهود والعرب[٩٩] . ومع ذلك فإن سعيد ، بإصراره المعهود على إهمال الحقائق ، يؤكد على أن سكان الحي كانوا في معظمهم عربا . خلال خمسة أشهر ونصف ، ما بين نهاية شهر تشرين ثاني ١٩٤٧ ومنتصف شهر أيار ١٩٤٨ ، أي ما بين الإعلان عن قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وتأسيس دولة إسرائيل ، عكرت حادثتا عنف صفو حي الطالبية الهادئ .

الحادثة الأولى حصلت في ٢١ كانون أول ١٩٤٧ عندما قتل العرب صحفيا يهوديا ـ إنجليزيا يعمل في صحيفة Palestine Post[١٠٠] . أما في الحادثة الثانية ، التي حصلت في ١١ شباط ١٩٤٨ ، فإن عضوا في منظمة الهاجاناه[١٠١] قد جرح من قبل العرب[١٠٢] ، وفي اليوم نفسه ، وبأمر غير مسؤول من قبل قيادة الهاجاناه في المنطقة ، جابت شاحنة تحمل مكبرا للصوت في المنطقة مهددة العرب بضرورة الرحيل[١٠٤] . وحسب تقرير أوردته صحيفة هآرتس ، الصادرة في ١٢ شباط ١٩٤٨ ، فقد اعتقل الرجال الثلاثة ، الأعضاء في الهاجاناه ، الذين كانوا يستقلون الشاحنة من قبل البوليس البريطاني في الحال[١٠٥] .

لقد غادر بعض سكان الطالبية من العرب المنطقة في شهر شباط ، ولكن لفترة زمنية قصيرة ، وعادوا بعد أيام على أثر تطمينات البوليس والمسؤولين المدنيين البريطانيين(١٠٦) . ولعل عدد الأشخاص الذين غادروا أن يكون قليلا لأننا لا نعثر على ذكر ذلك في الصحف الفلسطينية الرئيسية الصادرة في تلك الفترة(١٠٧) . أما عملية إخلاء السكان العرب فقد حصلت بعد ذلك ، أي بعد مغادرة القوات البريطانية وسقوط الطالبية وبقية مناطق القدس الجنوبية في أيدي الهاجاناه . وقد حصل ذلك في منتصف شهر أيار(١٠٨) ، رغم أن الكتاب الرئيسي الذي يتناول الموضوع ، والصادر عن مركز الأبحاث الفلسطيني ، يشير إلى أن ذلك حصل في ٣٠ نيسان ١٩٤٨(١٠٩) .

وعلى كل حال ، فإننا نتكلم عن فترة أربعة أشهر ونصف إلى خمسة أشهر تفصل عملية الرحيل عن التاريخ الذي يدعيه سعيد ، وبعد شهرين ونصف إلى ثلاثة أشهر من حادثة الشاحنة ذات مكبر الصوت في منتصف شهر شباط . وللحقيقة فإن الوثائق البريطانية الخاصة بهذه الفترة ، ومن ضمنها البرقيات الأمنية المحفوظة في الأرشيف ، لا تذكر شيئا عن مغادرة الفلسطينيين لحي الطالبية ، لأي سبب من الأسباب ، خلال شهر كانون أول ١٩٤٧(١١٠) .

بسبب هذه الاختلافات ، بين رواية سعيد والرواية التاريخية المكتوبة(١١١) ، والتناقضات الداخلية في الرواية ، فإننا لا نستطيع تجنب القول بأن عائلة سعيد ، كما أنها لم تكن تقيم بشكل دائم في الطالبية خلال الثلاثينيات والأربعينيات ، فإنها لم تكن تقيم في الحي في الشهور الأخيرة من الانتداب البريطاني . ومن ثمّ فلا

يمكن عد عائلة إدوارد سعيد من «اللاجئين» أو «المنفيين» من فلسطين بالمعنى السياسي الفعلي لكلمتي «لاجئ» أو «منفي» .

٧

لم تصل عائلة سعيد إلى القاهرة للمرة الأولى في نهاية عام ١٩٤٧ ، إذ نشأ إدوارد سعيد في الحقيقة في القاهرة ولعب مع أقران طفولته فيها . كما أنه درس في مدرسة الجزيرة الابتدائية بالقاهرة ، والتحق في سن الرابعة عشرة بكلية فكتوريا[١١٢] . وقد أرسله والده من القاهرة عام ١٩٥١ ليكمل دراسته الثانوية في مدرسة ماونت هيرمون بماساتشوسيتس[١١٣] .

كما أشرت من قبل فإنه يمكن تتبع تاريخ عائلة سعيد في القاهرة من خلال السجلات العامة وذكريات أصدقائه وجيرانه . ويؤكد سعيد على ذلك في مذكراته **خارج المكان**[١١٤] التي ستصدر قريبا . في هذا الكتاب ، بعنوانه الغريب الملائم ، فإن الرجل الذي قدم نفسه للعالم ولعشرات السنوات بوصفه اللاجئ المحترف ، الذي وصف بصورة مؤثرة الأثر العنيف للمنفى المفاجئ المرعب له ولعائلته والانقطاع المؤلم عن مدينته التي ولد فيها وقضى طفولته ، الذي عزف على الدوام على وتر عذابات السلب والنفي وفقدان البيت والمدرسة وأصدقاء الطفولة ، وفي حالة والده فقدان أملاكه ؛ هذا الشخص يقوم الآن بتغيير روايته . لقد تبين أن القدس لم تكن مركز حياة إدوارد سعيد ، المكان الذي أكد عام ١٩٩٨ أن بمقدورنا أن «نتتبع كل شيء في حياته انطلاقا منه .»[١١٥] لقد

كـانت القـدس مكانا بين أمكنة عـديدة تسـافـر إليـهـا العـائلة للاستجمام . أما المكان الرئيسي لعيش عائلته ، قبل سنوات من ولادته وحتى عام ١٩٦١ ، فكان القاهرة في مصر .

وإذا كان سعيد قد غير روايته في الكتاب فهو فعل ذلك بصمت ودون أن يعتـرف بالاخـتـلاف المذهل بين روايتـه الحـاليـة ورواياته السابقة . إنه يموه ويخادع ويعيد تعبئة الفراغات التي تركها سابقا بطريقة منهجية مقدما لنا «نسخة معتمدة جديدة» تتألف من مئات الصفحات التي تحكي عن تفاصيل حياة العائلة ، التي يتذكرها بعد خمسين أو ستين عاما ويروي عنها بصورة تفصيليـة تافهـة (ومملة على الأغلب) خصوصا عندما يأتي على ذكر سن بلوغه وإحباطاته الجنسيـة فـي صباه والإهانات التي تعـرض لهـا على أيدي والديه وزملاء دراسته ومدرسيه . فهل يسعى [إدوارد سعيد] بهذا إلى خداعنا وحرف انتباهنا عن الفـارق الفـاضح بين سيـرته الذاتيـة الأخيرة وسيرته السابقة التي رواها على دفعات خلال ثلاثة عقود في الكتب والمقالات والمحاضرات والمقابلات والذكريات المصورة؟ لربما يقصد أن تتصادم السيرتان في أذهاننا مثل قاطرة تتحرك على سكتين متـوازيتين ، دون أن تكون أي من النسـختين تنتـمي إلى معيار عتيق بال يسمى الحقيقة الموضوعية!

إن اختـيـار سعيـد هذه اللحظة بالذات لينشـر نسختـه الجـديدة المعدّلة يظل أمرا قابلا للتساؤل . بالنسبة لي لا أستطيع أن أغفل أن الـ ٨٥ مـقـابلة التي أجـريناها طوال ثلاث سنوات من البـحث والتنقيب ، ومن ضمنها مقابلات مع أشخاص يعرفهم إدوارد سعيد

نفسه ، قد نبهته إلى ضرورة أن يعود بذاكرته إلى أيام طفولته القاهرية . إذا كان هو قادرا بالفعل على أن يتذكر بصورة شبه فوتوغرافية كل شيء ، من أحاديث والديه وصولا إلى أحلامه الرطبة في مراهقته ، فهل كان بإمكان شخص صريح إلى هذه الدرجة أن يتعمد إخفاء أي شيء؟

مهما كانت الأسباب التي دعت سعيد إلى فعل ذلك فإن من الأكيد أن هذا الشخص الشديد الحماس ، الذي لا يتعب ، لم يكن يقصد إلى تأليف كتاب يتعارض مع برنامجه السياسي . وقد كان هذا واضحا ، على الأقل ، في الفيلم الوثائقي الذي أنتجته هيئة الإذاعة البريطانية بعنوان «بحثا عن فلسطين» .

في ذلك الفيلم يقف سعيد ، بصحبة ابنه وصديق له ، أمام البيت رقم ١٠ في شارع برينر في القدس ، ويؤشر بيده قائلا : «بيت عائلتي» وصوته يرتجف بالتأثر ، ملمحا إلى إمكانية استرجاع البيت من السلطات الإسرائيلية . وفي مقابلة أجريت معه في بداية هذا العام يعاود الحديث ثانية عن ملكية والده للبيت وعمل مزعوم في القدس هو «الشركة الفلسطينية للتعليم» (وهو شركة كانت «تزود المكاتب بالمعدات وتبيع الكتب»)[١١٦] .

المحاور : أريد أن أسألك فيما إذا كنت تقبل التعويض المالي من الحكومة الإسرائيلية مقابل ما خسرتموه؟

إدوارد سعيد : أنت صريح زيادة عن اللزوم .[١١٧]

ويقول في مكان آخر : «لقد خسرت وخسرت عائلتي ممتلكاتها وحقوقها عام ١٩٤٨ .»(١١٨) ويجب التعويض عن تلك الممتلكات ، يشدد سعيد ، وعن جميع الممتلكات الفلسطينية . «لم أفكر في يوم من الأيام التنازل عن ذلك . فإن كنا قد فقدنا ممتلكاتنا فعلى الإسرائيليين أن يدفعوا مقابل ذلك .»(١١٩)

دعونا نتجاوز الآن الحقيقة الساطعة التي تقول إن القيادة الفلسطينية ـ العربية ، لا إسرائيل ، هي التي أشعلت حرب ١٩٤٨ ، وهاجمت السكان اليهود في فلسطين بعد رفضها قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة(١٢٠) . ودعونا كذلك نتجاوز حقيقة أخرى بالوضوح نفسه تقول إنه خلال الحرب الناشبة ، التي رأينا فيها جميع الشعوب العربية تندفع لتقف إلى جانب الفلسطينيين ، لم يغادر مئات الآلاف من الفلسطينيين (الفعليين) فلسطين الانتدابية فقط بل إن مئات آلاف اليهود طردوا في الوقت نفسه من البلدان العربية ، وشرقي القدس ، والمدينة القديمة ، وما أصبح فيما بعد يعرف بالضفة الغربية ؛ وقد وصل هؤلاء المطرودون إلى إسرائيل دون أي متاع حاملين جراحهم النفسية . وهذا يستدعي المساواة بين مطالب جميع اللاجئين(١٢١) . لكن دعونا نضع كل هذا جانبا ونسأل : لماذا لم يحاول إدوارد سعيد ، إذا كان يملك أية حقوق قانونية ، طلب التعويض عن أملاكه؟

إن ذلك لا يعود إلى جهله بالإجراءات الإسرائيلية . لقد تعرض لهذه الإجراءات في واحد من كتبه (**بعد السماء الأخيرة**)(١٢٢) . وكما يعلم هو نفسه فإن تلك الإجراءات شديدة

البساطة ، وكل ما يحتاجه هو تعبئة طلب من صفحتين ، بالإنجليزية أو العبرية أو العربية[١٢٣] . ويمكن للمدعين تعبئة الطلب أو توكيل محام ليقوم بالأمر بنفسه . كما أن الطلب بلا رسوم[١٢٤] . ومن ثمّ فإن المخاطرة غير موجودة فيما يمكن للمرء أن يربح كثيرا نتيجة تعبئة الطلب .

لربما يكون أمل سعيد ضعيفا فيما يتعلق بالشركة الفلسطينية للتعليم ، إذ أن مخزن الشركة الواقع في شارع يافا نهب وحرق من قبل المتظاهرين العرب في نهاية عام ١٩٤٧[١٢٥] ، ودمرته القذائف أثناء الحرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩[١٢٦] ، وأصبح واقعا في المنطقة الحرام التي تفصل المواقع الإسرائيلية عن المواقع الأردنية إلى أن وحدت إسرائيل القدس في حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧[١٢٧] ؛ ففي ذلك الوقت لم يبق شيء ، بالتأكيد ، ليعوض عنه . أما فيما يتعلق بالبيت فالمسألة مختلفة : فحسب تقدير مسؤول أكبر شركة عقارية في إسرائيل فإن البناية الواقعة في ١٠ شارع برينر تساوي على أقل تقدير مليونا وثمانمائة ألف دولار هذه الأيام[١٢٨] . لننس مسألة القيمة المالية ، ونفكر بأن عملا يقوم به سعيد بهذا الخصوص سوف يكون مثالا يحتذى من قبل مواطنيه الفلسطينيين ، وسوف تكون له قيمة سياسية كبرى تشحن الأجواء وتسبب الكثير من الحرج لإسرائيل .

لكن سعيد لن يقوم بتعبئة أي طلب بخصوص المخزن أو البيت . وحتى لو كانت الشركة الفلسطينية للتعليم قد سجلت ضمن أملاك الغائبين (أو بالأحرى ضمن الأملاك المهملة) فلم يكن وديع سعيد سيعاني ماليا بسبب تدميرها . ورغم أنني وجدت اسم وديع

سعيد أو توقيعه ، فيما يتعلق بالمخزن ، في بعض سجلات الهاتف أو في بعض السجلات التجارية قبل عام ١٩٣١ ؛ إلا أنه بدءا من عام ١٩٣١ لم أجد إلا اسم بولص يوسف سعيد(١٢٩) . لربما يكون وديع سعيد ، بعد أن استقر في القاهرة بصورة دائمة عام ١٩٢٦ ، قد استرد بعض حقوقه في الشركة في السنوات التالية . أما فيما يتعلق بالبيت في ١٠ شارع برينر فقد قمت بتفصيل الأمر من قبل .

ومع ذلك فليس بإمكاني أن أضرب صفحا عن مسألة «التعويضات» ، لكي أستخدم تعبير إدوارد سعيد ذا الطبيعة الملتهبة(١٣٠) ، دون أن أختم بملاحظتين أخيرتين . الملاحظة الأولى هي أنه حتى لو كانت الكبرياء قد منعته من تعبئة طلب من أي نوع وتقديمه لمكتب الحكومة الإسرائيلية(١٣١) ، فإن لديه فرصة أن يسجل طلبه ، من خلال البريد أو أثناء زياراته التي قام بها خلال السنوات الأخيرة ، لدى واحدة من المؤسسات الفلسطينية التي أخذت على عاتقها تسجيل طلبات الملكية ؛ فحتى عام ١٩٩٨ لم يكن سعيد قد اتصل بأي من هاتين المنظمتين(١٣٢) .

الملاحظة الثانية هي أنه بغض النظر عن الخسائر المالية التي لحقت بعائلة وديع سعيد ، أو لم تلحق بها ، في القدس في نهاية الأربعينيات فإنها لا تذكر بالقياس إلى الخسائر المدمرة التي لحقت بوديع وعائلته بعد سنوات في مصر(١٣٣) . فكما أبلغنا أحد الموظفين الحاليين في شركة مكتبة العلم في حوار معه السنة الماضية ، وحسب اعتراف إدوارد سعيد نفسه في **خارج المكان** ،

فقد قام بعض الغوغاء من التابعين للثورة بحرق مخزن وديع سعيد وكذلك فرعه في القاهرة عام ١٩٥٢[١٣٤] . وبعد ذلك بسنوات قام الرئيس المصري الدكتاتور جمال عبد الناصر بتأميم عمل وديع سعيد الناجح في حركة التطهير التي قام بها ناصر ضد المؤسسات الغربية[١٣٥] . (وعلينا أن نأخذ في الحسبان أن وديع سعيد كان أجنبيا يحمل جواز سفر أمريكيا .)

ومع ذلك ، وفي مقابل الحماس الشديد الذي أبداه إدوارد سعيد في ادعاءاته المزعومة ضد إسرائيل فقد ظل صامتا ، بصورة تدعو للاستهجان ، فيما يتعلق بالخسائر الحقيقية الضخمة التي منيت بها عائلته في مصر . يستطيع المرء أن يتخيل أسباب هذا الصمت . إن الحديث عن هذه الخسائر قد يكشف عن إقامة عائلته الدائمة في القاهرة لا في القدس ، والأهم من ذلك أنه قد يضر بسمعة إدوارد سعيد الذي كان في يوم من الأيام «ناصريا» متحمسا[١٣٦] . ولربما يعرف سعيد أنه بخلاف إسرائيل ، التي يحكمها القانون ، فإن إمكانية الحصول على أي شيء من الأملاك الضائعة في مصر معدومة .

٨

في الكثير مما كتبه عن طفولته في فلسطين يصور إدوارد سعيد الأعوام التي سبقت ١٩٤٨ بوصفها أنشودة رعوية رومانسية كانت الحياة فيها بسيطة ومتناغمة وسعيدة[١٣٧] . وقد دمر العنف ، الذي اندلع قبل نشوب الحرب الشاملة ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، هذا العالم ، الذي كان يتمتع بالكمال الخالص ، وتسبب في طرده من «بيته العتيق الجميل» ليتشرد طوال ٥٠ عاما من وطنه . وقد كانت هذه

الصورة هي «الاستعارة المركزية» لا في سيرته الذاتية فقط بل في أساس هويته وهوية معسكره الذي يطالب بالتعويض . في هذا السيناريو علينا أن نضع مكان إدوارد سعيد الشعبَ الفلسطيني بكامله ـ كما يفترض أن يفعل قراء سعيد ومستمعوه ـ لكي يستطيع الواحد منا فهم هذه العاطفة الأسطورية التي تحرك البرنامج الاستردادي للعديد من الوطنيين الفلسطينيين الذين تبدو طموحاتهم السياسية الواسعة ، حتى بالنسبة للمراقبين المتعاطفين ، غير مكتفية بما تقدمه لهم العملية السياسية الطبيعية .

إن إدوارد سعيد باحث كبير وشخصية أدبية بارزة ، وهو مؤلف كتاب بعنوان **صور المثقف**(١٣٨) ، وهو يحدد مسؤولية المثقف كما يلي : « أن يقول الحقيقة بوضوح تام ، بصورة مباشرة ، وبأمانة تامة ما كان ذلك ممكنا .»(١٣٩) فما الذي نفعله عندما نكتشف أن الحقيقة الواضحة الأمينة المباشرة تتعارض بصورة جذرية مع حكاية كونه فلسطينيا ، أي تلك الحكاية التي سعى خلال عقود لإقناعنا بها؟ ونريد أن نقول للمرة الأخيرة إنه نشأ في القاهرة ، وليس في القدس ، وإن أباه مواطن أمريكي(١٤٠) وقد عاد من هجرته قبل تسع سنوات من مولد إدوارد وأنشأ عملا اقتصاديا ناجحا ؛ ومن ثمّ فإن إدوارد سعيد الشاب عاش ، إلى يوم مغادرته إلى الولايات المتحدة في سن مراهقته عام ١٩٥١ ، في بيوت فخمة والتحق بمدارس إنجليزية خاصة ، ولعب التنس في نادي الجزيرة الخاص بالأثرياء وكان واحدا من قلة من الأطفال العرب القادرين على دخول ذلك النادي .

ما نستنتجه من هذا كله أن الحكاية برمتها كانت كذبا في كذب ؛ كذبة منمقة ، ورغم رغم ذلك كانت كذبة مفيدة ومقبولة على نحو واسع . . ولكنها مع ذلك تظل كذبة . وبما أنه يستمر في عملية «تدوير» هذه الكذبة ، وهو يفعل ذلك بنجاح في كتابه الجديد **خارج المكان** ، فإن من الممتع أن نراقب ونرى بين حشود المعجبين بسعيد ، أو أصدقاء الشعب الفلسطيني ، الشخص الذي سيلاحظ الكذبة أو يبدي نوعا من الانتباه . إنه سؤال يتجاوز بكثير الأصداء ، والتمثيلات السيئة غير الحقيقية ، التي يثيرها أحد المثقفين المراوغين المتقلبين .

عن مجلة كومنتري ، عدد شهر أيلول ، ١٩٩٩

هوامش

* ولد جستس رايد فاينر في بوسطن وتخرج من كلية الحقوق في جامعة بيركلي ثم انتقل إلى إسرائيل عام ١٩٨١ ليعمل في وزارة العدل الإسرائيلية ، حتى عام ١٩٩٣ ، مسؤولا عن الرد على اتهامات جماعات حقوق الإنسان ووسائل الإعلام الدولية بخصوص اعتداءات إسرائيل المتكررة على حقوق الإنسان الفلسطيني . وقد عمل ، خلال فترة كتابته لهذه المقالة ، في معهد الشؤون العامة الذي يموله اليهودي الأمريكي مايكيل ميلكين الذي سجن في أمريكا لعلاقته بتمويل صفقات للمخدرات . المترجم

١ . إنه يعمل أستاذ كرسي الأدب الإنجليزي والأدب المقارن ، وهو واحد من تسعة فقط يحملون لقب أستاذ في جامعة كولومبيا . أنظر «نشرة جامعة كولومبيا ، العدد ٨ ، ١٩٩٧ .

٢ . طبقا لأحد المصادر فقد ألف سعيد ١٠ كتب . وفي مقابلة مع روبرت ماركاند (كريستيان ساينس مونيتور ، ٢٧ أيار ١٩٩٧) ذكر أنه ألف ١٨ كتابا ، وقد بلغ عدد هذه الكتب ٢٠ كتابا عام ١٩٩٨ كما ذكر أثناء منحه درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة ميتشيغان في ٤ أيار ١٩٩٨ . وبغض النظر عن عدد الكتب التي ألفها سعيد فإنها تدرس في المعاهد والكليات في الجامعات الأمريكية والأوروبية ، كما يذكر إقبال أحمد في تقديمه كتاب «القلم والسيف» (١٩٩٤) لإدوارد سعيد ، ص : ٧ . ومما يؤكد على تأثير سعيد الكبير الفهرس الذي وضعته جامعة كاليفورنيا (إرفاين) ويضم ٩٨٦ كتابا ومقالة عن كتاباته ، وهو منشور على شبكة الإنترنت تحت عنوان «مصادر نقدية مختارة عن إدوارد سعيد وكتاباته» .

٣ . يكتب سعيد مقالات عن الشرق الأوسط وموضوعات أخرى لمجلة Pro-gressive كما يكتب مقالتين في الشهر في صحيفة الحياة اللندنية الواسعة الانتشار في العالم العربي ، كما تشير سوزان تريغيل في نشرة جامعة كولومبيا ، العدد ٣ ، ٢٤ نيسان ١٩٩٨ .

٤ . لقد وجهت دراسات سعيد العديد من الحقول المعرفية . أنظر جاني سكوت

«فلسطيني يتحدى الزمن ؛ ناقد أدبي من جامعة كولومبيا يقول إن السرطان يستحث الذاكرة» ، صحيفة نيويورك تايمز ، ١٩ أيلول ١٩٩٨ . كما يلاحظ البروفيسور تيموثي ميتشيل ، الذي يعمل في مركز كيفوركيان لدراسات الشرق الأدنى في جامعة نيويورك ، أن سعيد «يمتلك من قدرا من التأثير في حقل العلوم الإنسانية في أمريكا وأوروبا خلال العقود الأخيرة أكثر مما يملكه أي أكاديمي آخر» . وحتى نقاد سعيد أنفسهم يعترفون بأنه أبرز أكاديمي عربي يعيش في الغرب . أنظر : كنعان مكية ، القسوة والصمت : الحرب والاستبداد والانتفاضة والعالم العربي (١٩٩٣) .

٥ . حاضر سعيد في أكثر من ١٥٠ جامعة ومعهدا . وفي عامي ١٩٩٧ و١٩٩٨ حاضر سعيد في إنجلترا والهند وفرنسا . أنظر : سوزان تريميل ، مصدر سابق .

٦ . ظهر سعيد على شاشة البي . بي . سي ، وأدلى بتعليقات للإذاعة الكندية ، والإذاعة الأسترالية ، والعديد من المحطات الإذاعية والتلفزيونية . سوزان تريميل ، مصدر سابق .

٧ . نقل سعيد بعض الاقتراحات السياسية ما بين إدارة كارتر وياسر عرفات . أنظر : إدوارد سعيد ، القلم والسيف ، ص : ١٣٦ ـ ١٣٧ ، وك . أبو الريش ، عرفات : من رجل مقاومة إلى ديكتاتور (١٩٩٨) ، ص : ١٥٦ . وقد شارك سعيد فيما بعد في أول لقاء رسمي بين عضو في المجلس الوطني الفلسطيني ووزير الخارجية الأمريكي ، في فترة رئاسة ريغان ، جورج شولتز . أنظر : إدوارد سعيد ، سياسات السلب : الكفاح من أجل حق تقرير المصير ١٩٦٩ ـ ١٩٩٤ (١٩٩٤) .

٨ . إدوارد سعيد وإبراهيم أبو لغد ، «ملخص تصريح» ، الكونغرس الأمريكي ، اللجنة الفرعية الخاصة بتقصي الحقائق في لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس ، وقائع الاستماع حول مساعي السلام في الشرق الأوسط ، الكونغرس الرابع والتسعون ، الجلسة الأولى . ٣٠ أيلول ، ١٩٧٥ ، (١٩٧٦) ، ص : ٢٨ ـ ٣١ ، ٣١ ـ ٣٦ ، ٣٦ ـ ٦٢ .

٩ . إقبال أحمد ، مصدر سبق ذكره ، ص : ٧ . بثت هيئة الإذاعة البريطانية فيلما وثائقيا بعنوان «قصة إدوارد سعيد» عام ١٩٩٠ ، كما أنه كتب مؤخرا وروى فيلما وثائقيا آخر بثته الإذاعة نفسها بعنوان«إدوارد سعيد : منظور شخصي جدا لفلسطين» ، وقد سجل الفيلم الأخير ليتزامن مع مرور ٥٠ عاما على ما يسميه الفلسطينيون نكبة فلسطين في أيار ١٩٤٨ . بث الفيلم في إنجلترا في ١٧ أيار

١٩٩٨ . كما أنه بث في الولايات المتحدة على شاشة تلفزيون PBS بتاريخ ٥ تموز ١٩٩٩ بعنوان «بحثا عن فلسطين» .

١٠ . «تكريم إدوارد سعيد» ، Jerusalem Times ، ٢١ أيار ، ١٩٩٩ ، ١٣ . وقد امتدح المعهد دور سعيد الفعال في «منح القضية الفلسطينية بعدا إنسانيا» . وقد اعترف سعيد نفسه أنه أصبح مع الوقت «يستمتع» بالحكاية . أنظر : القلم والسيف ، ١٦٤ .

١١ . أنظر : «مفكرة الضفة الغربية» ، الأهرام ويكلي ، ١٠ ـ ١٦ كانون أول ١٩٩٨ . وقد طالب سعيد جمهورا منتشيا في بيت لحم ، في محاضرة ألقاها في ملتقى سبيل الدولي الثالث حول تحرير اللاهوت في ١٣ شباط ١٩٩٨ ، أن عليه لكي يتوصل إلى تحرير نفسه أن يقوم بالتأثير على الرأي العام وكسب تأييد الآخرين ، وهو يجادل قائلا بأن علينا أن «نحكي للناس حكاياتنا الشخصية لا حكايات التاريخ فقط .» أنظر : سوزان رجي «إدوارد سعيد : حس الدعابة ، والأيمان ، والحماسة في البحث الأكاديمي» ، Jerusalem Times ، ٢٠ شباط ، ١٩٩٨ ، ٧ . إن من بين أهم كتب سعيد كتابا يدرس أهمية البدايات كنقطة من نقاط الانطلاق لا في الأعمال الإبداعية فقط بل في الحياة كذلك . أنظر : إدوارد سعيد ، بدايات : القصد والمنهج (١٩٧٥) .

١٢ . رشح هذا الكتاب الإشكالي والعميق التأثير لجائزة النقاد للكتاب الوطني [الأمريكي] ، وقد ترجم إلى ٢٦ لغة .

١٣ . أنظر : إدوارد سعيد : السلام وما يثيره من قلق : مقالات عن فلسطين وعملية السلام في الشرق الأوسط (١٩٩٦) .

١٤ . إيان ماكينتاير ، «التحرر من وهم عرفات» في The (London) Times ، ٧ تموز ١٩٩٤ ؛ إدوارد سعيد ، سياسات السلب ، المقدمة .

١٥ . المصدر السابق .

١٦ . انظر الهامش رقم ٧ .

١٧ . عام ١٩٧٧ كان سعيد عضوا في وفد منظمة التحرير الفلسطينية إلى الأمم المتحدة . كما أنه أسهم في إعداد إعلان الدولة الفلسطينية المستقلة الذي صدر عن المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٨٨ . كان سعيد عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني من عام ١٩٧٧ إلى عام ١٩٩١ . أنظر بريان أبليارد ، «تأملات من فوق حبل مشدود» ، صحيفة الإندبندنت (لندن) ، ٢٣ تموز

١٩٩٣ ؛ «إدوارد سـعـيـد : نجم في الأدب الإنجليـزي وفي منظمـة التـحـرير» ، نيويورك تايمز ، ٢٢ شباط ١٩٨٠ ؛ إدوارد سعيد : سياسات السلب ، ٣ . وأنظر أيضا : مادة «إدوارد سعيد» في تشارلز موريتز (محرر) ، كتاب السيرة الذاتية السنوي ١٩٨٩ ، ص : ٤٩٣ ــ ٤٩٤ ؛ وزو هيلر ، «عـقل كـوني وسـيـاسـات معقدة ، وصـــلات وثيقـــة بالبحث الأكاديمي : القضية الفلسطينية تصنع حياة أستاذ جامعي» في San Francisco Examiner ، ٢١ شباط ١٩٩٣ .

١٨ . لقد تعرضت أبحاثه الأكاديمية ، وكذلك فهمه للتاريخ السياسي والثقافي ، لنقد عنيف في الحقيقة . لكن ذلك لم يكن كافيا للتقليل من شهرته وتشويه سمعته ، ولم يمنعه من تولي منصب رئيس جمعية اللغات الحديثة في الولايات المتحدة . أنظر على سبيل المثال : جيفري هارتمان ، رسالة إلى المحرر ، مجلة Crit-ical Inquiry ، خـريف ١٩٨٩ ، المجلد ١٦ ، ص : ١٩٩ ؛ وبرنارد لويس ، الإســلام والغـرب (١٩٩٣) ، ص : ١١٥ ؛ وروبرت غـريفين ، «رد على إدوارد ســعـيـد والاخـتــلاف» في Critical Inquiry ، ربيع ١٩٨٩ ، المجلد ١٥ ، ص : ٦١١ ؛ وسوزان فريمان ، «جين أوستن وإدوارد سعيد : الجنس والثقافة والاستعمار» في Critical Inquiry ، صــــيـف ١٩٩٥ ، المجلد ٢١ ، ص : ٨٠٥ ، ٨٠٧ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ؛ وإيمانويل سيـفان ، «إدوارد سعيد ونقاده العرب» في «تأويلات الإسـلام : في الماضي والحاضر» (١٩٨٥) ، ص : ١٣٤ ، ١٣٦ ــ ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥١ ؛ وكنعان مكية ، مصدر سابق ، ص : ٢٧٨ ــ ٢٧٩ ، ٣١٧ ــ ٣١٩ ، ٣٤٨ الهامش رقم ٩ ؛ وفؤاد عـجـمي ، «الصمت في الثقافة العربيـة» في New Republic ، ٦ نيسان ١٩٨٧ ، العـــــدد ٣٢ ؛ ووالتر لاكير ، مراجعة لكتاب إدوارد سعيد «القضية الفلسطينيـــــة» في New Republic ، ١٥ كانون أول ١٩٧٩ ، العدد ٢٣ ، ص : ٣٤ ــ ٣٥ .

١٩ . بعكس الأكاديميين والمؤرخين ، أو الصحفيين ، الذين تناولوا المسائل الخاصة بالفلسطينيين والإسرائيليين ، يعمل سعيد على وضع نفسه وسط خشبة المسرح بصورة مستمرة . وقد جرى سؤاله مرات عديدة عن طفولته في مدينة القدس . أنظر على سبيل المثال : دينيشيا سميث «رجل عرفـــات في نيويورك : الحيـــاة المنقسمة لإدوارد سعيد الأستـــاذ في جامعـــة كولومبيــــا» ، فيNew York ٢٥ كانون ثاني ١٩٨٩ ؛ و روبرت ماركانـــد ، مصــــدر سابـــق ؛ وسلمـــان رشـــدي ، «عـــن الهـويـــة الفلسطينيـــة» في New Left Review عدد

تشرين ثاني ـ كانون أول ١٩٨٦ ، ص : ٦٣ ؛ ومعين رباني «الرموز في مواجهة الحقيقة : عام على إعلان المبادئ» ، مجلة الدراسات الفلسطينية (الطبعة الإنجليزية) ، المجلد ٢٤ ، ١٩٩٥ ؛ وديفيد بارساميان ، «إدوارد سعيد : القلم والسيف : الثقافة والإمبريالية» في Z Magazine ، تموز/آب ، ١٩٩٣ ، ص : ٦٢ ، ٦٩ . كما أن إدوارد سعيد نفسه يعمل في كتاباته الشخصية على إلقاء ضوء على حياة عائلته في القدس وخروج العائلة إلى «المنفى» في مصر والولايات المتحدة فيما بعد . أنظر : «بين عالمين : إدوارد سعيد يعطي معنى لحياته» في London review of Books ، ٧ أيار ١٩٩٨ ؛ إدوارد سعيد وجين موهر ، بعد السماء الأخيرة (١٩٨٦) ؛ إدوارد سعيد ، «أرض آبائي المقدسة» في London) Observer ، ١ و٨ تشرين ثاني ١٩٩٢ ؛ إدوارد سعيد ، «تذكر القاهرة» في House & Garden ، نيسان ١٩٨٧ ، ص : ٢٠ ؛ إدوارد سعيد ، «فلسطين : فيما مضى والآن : رحلة منفي في إسرائيل والأراضي المحتلة» في Harper's ، كانون أول ١٩٩٢ ، ص : ٤٧ ، ٥٠ ؛ إدوارد سعيد ، سياسات السلب ، ص : ٣ـ ٦ .

٢٠ . أنظر لوري كنغ إيراني ، « سعيد يدعو إلى حل وسط عربي ـ يهودي» في Jerusalem Times ، كانون أول ١٩٩٧ ، ص : ٦ .

٢١ . «في كتابيّ «الاستشراق» و«الثقافة والإمبريالية» ، وفي الكتب السياسية الخمسة أو الستة التي كتبتها عن فلسطين والعالم الإسلامي التي ألفتها في الوقت نفسه ، شعرت أنني أجلو للجمهور الغربي أشياء كانت إما خافية عليه أو أنه لم يجر استنقاذها على الإطلاق . إدوارد سعيد ،«بين عالمين : إدوارد سعيد يعطي معنى لحياته» ، مصدر سابق . وقد اقتبس المؤرخ مارتن غلبرت سيرة إدوارد سعيد الشخصية بوصفها رمزا لوضع الفلسطينيين في كتابه «القدس في القرن العشرين» ، ١٩٩٦ ، ص : ٣٤٦ ـ ٣٤٨ .

٢٢ . إدوارد سعيد ، ، بعد السماء الأخيرة (١٩٨٦) ، ص : ١١٢ . وهو يقول في حوار مع BBC World Hard Talk بتاريخ ٢ كانون ثاني ١٩٩٨ موضحا تراجيديا المنفى :

«المنفى من أكثر المصائر إثارة للحزن . ففي الأزمنة ما قبل الحديثة كان النفي من بين العقوبات الأكثر إثارة للرعب لأنه لم يكن يعني فقط سنوات عديدة من التجوال بلا هدف بعيدا عن العائلة والأماكن الأليفة ، بل كان يعني أن

المرء أصبح يمثل هوية المنبوذ الدائم . . . أما في القرن العشرين فقد تحول المنفى من العقاب الذي يقع على شخص بعينه ، وأحيانا القصري . . . إلى عقاب وحشي لمجتمعات أو شعوب بكاملها نتيجة لعوامل غير شخصية مثل الحرب والمجاعات والمرض .»

أنظر كذلك : روبرت ماركاند ، مصدر سابق ؛ إدوارد سعيد ، «تأملات في المنفى» في Granta ، خريف ١٩٨٤ ، ص : ١٥٧ .

٢٣ . سلمان رشدي ، «إن كنت أنساك . . . سلمان رشدي يكتب عما يعنيه أن تكون فلسطينيا» ، سلمان رشدي يكتب عن «بعد السماء الأخيرة» ، ملحق كتب الغارديان ، ١٩ أيلول ١٩٨٦ .

٢٤ . إدوارد سعيد ، القلم والسيف ، ص : ١٦٤ .

٢٥ . الاقتباس كما يلي :

«هناك اختلاف شاسع بين السلوكين السياسي والثقافي . إن دور المثقف هو أن يقول الحقيقة بوضوح تام ، بصورة مباشرة ، وبأمانة تامة ما كان ذلك ممكنا . لا ينبغي أن يهتم المثقف إذا كان ما سيقوله سيجلب الإحراج لمن هم في السلطة ، أو أنه سيرضيهم أو يغضبهم . إن قول الحقيقة للسلطة يعني أيضا أن قطاع المثقفين ليس جزءا من الحكومة أو جماعة مصالح : الحقيقة فقط بلا رتوش .»

إدوارد سعيد ، «إسرائيل ـ فلسطين : طريق ثالث» ، لوموند دبلوماتيك ، آب ـ أيلول ١٩٩٨ .

٢٦ . بدأت بإجراء بحث حول سيرة طفولة سعيد في مقالة سابقة لي . أنظر : جستس رايد فاينر ، «السلام وما يثيره من قلق : المثقفون الإسرائيليون والفلسطينيون الذين رفضوا عملية السلام الحالية» في Cornell International Law Journal ، المجلد ٢٩ ، ١٩٩٦ ، ص : ٥٠١ .

٢٧ . أنظر الهامش رقم ١٩ ، وأنظر كذلك : جاني سكوت ، مصدر سابق .

٢٨ . إدوارد سعيد ، خارج المكان ، ١٩٩٩ .

٢٩ . جاني سكوت ، مصدر سابق .

٣٠ . «إدوارد و . سعيد» ، مصدر سابق ، ص : ٤٩٣ ـ ٤٩٧ .

٣١ . أنظر الهامش رقم ١٩ ، وأنظر أيضا : إدوارد سعيد ، «ارض آبائي المقدسة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٩ ، وإدوارد سعيد ، سياسات السلب ، ص : ١٧٥ .

٣٢ . إدوارد سعيد ، « بين عالمين . . .» ، مصدر سابق ، ص : ٣ .

٣٣ . إدوارد سعيد ، القلم والسيف ، ص : ٥٠ .

٣٤ . أنظر مراجعة جون سيغلر لكتاب سعيد «سياسات السلب» وهي بعنوان «فلسطيني يتكلم عن شعبه : سعيد يدعو إلى التسامح والتفاهم» في Montreal Gazette ، ٢٧ آب ، ١٩٩٤ . ويصف سعيد نفسه ، في مقالة نشرها مؤخرا ، القدس بأنها «المدينة الصغيرة التي عشت فيها قبل خمسين عاما .» أنظر : إدوارد سعيد ، «مشاهد من فلسطين» ، الأهرام ويكلي ، ٢٦ آذار ـ ١ نيسان ، ١٩٩٨ . كما أنه يصف في مقابلة معه بيت طفولته قرب فندق الملك داوود في القدس ، ودراسته في مدرسة سان جورج ، وكيف تركت عائلته القدس في شهر كانون أول ١٩٤٧ متوجهة إلى القاهرة . ويقول : «لم أكن أظن أنني لن أعود .» ثم إنه يتحدث عن حياته المنعّمة في القاهرة وعن مدارسها التي تعلم فيها بدءا من كانون أول ١٩٤٧ كما نفهم من المقابلة . أنظر : دينيشيا سميث ، مصدر سابق .

٣٥ . أنظر : مجلة The Nation بتاريخ ١٥ كانون ثاني ١٩٩٨ .

٣٦ . اسم والد سعيد هو وديع أو وليم ، أنظر : بعد السماء الأخيرة ، ص : ٨٨ .

٣٧ . فيما يتعلق بأماكن إقامة والد سعيد لم أتدخل في تفحصها ونقلتها عن سعيد نفسه .

٣٨ . يورد كاتب المقالة المواضع التي ورد فيها اسم وديع سعيد في السجلات المصرية . وهي أمور لا أظن أنها تهم القارئ العربي بسبب ضعف الحجة والدليل التي يقيمها فاينر ، خصوصا أن إدوارد سعيد لم ينكر أنه أقام مع عائلته في القاهرة ، وسيرة حياته الموسومة « خارج المكان» التي نشرها عام ١٩٩٩ تذكر بالتفصيل سني عيشه في القاهرة إبان طفولته وصباه . وسوف أهمل من الآن فصاعدا ترجمة المواضع التي يرد فيها ذكر عائلة سعيد في السجلات التي يقوم فاينر بتفحصها لإثبات قضيته الخاسرة . المترجم

٣٩ . إدوارد سعيد ، بعد السماء الأخيرة ، ص : ٧٨ .

٤٠ . يورد كاتب المقالة انتقال عائلة سعيد من شارع قصر النيل إلى ١شارع عزيز عثمان الذي كان البيت الأخير الذي عاش فيه إدوارد سعيد في القاهرة إلى حين مغادرته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٥١ حيث كان يزور والديه في القاهرة خلال العطل الصيفية . المترجم

٤١ . يتتبع الكاتب ورود اسم وديع سعيد في السجلات المصرية خلال الثلاثينيات

والأربعينيات . لكنه يشير إلى أن اسم وديع (أو وليم) سعيد لا يظهر في السجلات المصرية عام ١٩٣٧ . المترجم

٤٢ . يشير الكاتب إلى أنه أجرى محادثة هاتفية مع الدكتورة هدى الجندي ، وهي صديقة لعائلة سعيد وظلت على اتصال مع إدوارد لأكثر من ٥٥ عاما ، وهي تتذكر أنها كانت تلعب معه ومع أخواته قرب بيتهم ، وأن إدوارد كان يذهب للعب التنس في نادي الجزيرة . وهي تشير إلى أن عائلة سعيد ظلت تسكن في القاهرة من بداية الأربعينات إلى عام ١٩٦٢ . وهي لا تتذكر ، حسب فاينر ، أن عائلة سعيد كانت تذهب إلى فلسطين ، بل كانت تذهب خلال العطل الصيفية إلى لبنان . المترجم

٤٣ . أريد أن أصحح هذه العبارة لتصبح كما يلي : في تلك المدينة كانت تسكن أخت وديع سعيد ، نبيهة ، وزوجها بولص يوسف وهو ابن عم وديع ، وأطفالهما الخمسة .

٤٤ . أنظر : إدوارد سعيد ، « ضائعا بين الحرب والسلام : إدوارد سعيد مرتحلا مع ابنه في فلسطين عرفات» ، في London Review of Books ٥ أيلول ١٩٩٦ .

٤٥ . نسخة من شهادة ميلاد إدوارد سعيد أرسلتها لي وزارة الداخلية الإسرائيلية بناء على طلبي . ويقول إدوارد سعيد ما يلي : «رغم أن والدي كانا يعيشان في القاهرة عام ١٩٣٥ ، فإنهما متأكدان أنني ولدت في القدس . . . فقد ولدت هيلدا في أحد مستشفيات القاهرة طفلا كانت ستسميه جيرالد ولكنه أصيب بالتهاب ومات بعد ولادته مباشرة . ولكي يتجنب والداي حدوث الشيء نفسه معي قررا السفر إلى القدس . . .» أنظر : خارج المكان ، ص : ٢٠ .

٤٦ . يشير فاينر إلى سجلات كنيسة سان جورج البروتستانتية . المترجم

٤٧ . أنظر هامش ٥٦ .

٤٨ . إدوارد سعيد ، «فلسطين : فيما مضى والآن : رحلة منفي في إسرائيل والأراضي المحتلة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٧ .

٤٩ . إدوارد سعيد ، «أرض آبائي المقدسة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٩ . وأنظر أيضا كتاب سعيد «سياسة السلب» ، ص : ١٧٢ ـ ١٩٩ .

٥٠ . يضمن كاتب المقالة الصورة في ملحق يضيفه للمقالة . المترجم

٥١ . «تكريم إدوارد سعيد» ، جيروزاليم تايمز ، ٢١ أيار ، ١٩٩٩ .

٥٢ . مقابلة مع إدوارد سعيد ، جيروزاليم تايمز ، ٦ آذار ١٩٩٨ .

٥٣ . إدوارد سعيد ، «أرض آبائي المقدسة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٩ ، ٥٠ . رغم أنه يحمل بيده خريطة لمكان البيت فقد أخذ منه الأمر « ساعتين لنعثر عليه ، والفضل لذاكرة ابن عمتي يوسف ، فقد استطعنا العثور على البيت أخيرا لالتزامنا حرفيا بخريطته .» وفي ضوء الحقائق التي وصفتها فإن ذلك لا يبدو مستغربا ، فقد استطاع يوسف الذي عاش ست سنوات في أحد طوابق البيت أن يتذكره ويرسم خريطة له بعد ٤٥ عاما من الغياب . لكن إدوارد سعيد ، الذي كان يعيش في القاهرة ويقوم بزيارات للقدس فقط ، واجه صعوبات في العثور على البيت حتى وهو يحمل خريطة في يده .

٥٤ . يشير كاتب المقالة إلى كون السجلات مكتوبة بالإنجليزية ومحفوظة في دفاتر كبيرة . المترجم

٥٥ . ورد في سجلات مكتب أراضي القدس أن العمة نبيهة إبراهيم سعيد تملك ٢٥٪ من الأملاك ، وأن كل واحد من أبنائها ، يوسف وجورج وألبرت وروبرت وإيفلين ، يملك ١٥٪ . وقد أجرى أحد مساعدي في البحث ، المحامي البلجيكي بول لامبرت ، مقابلة مع روبرت سعيد في مكتبه بعمان . ورغم أن روبرت رحب بمساعدي في البداية وكان متعاونا إلا أنه رفض مواصلة الإجابة على الأسئلة عندما بدأ الحديث ينعطف باتجاه ادعاءات ابن خاله إدوارد سعيد . وقد بدأ يهاجم السيد لامبرت ، وهو مسيحي كاثوليكي ، ويصفه بقوله إن «اليهود قد غسلوا دماغه» . وقال أيضا : «اليهود أسوأ البشر . أنت لا تستطيع أن تثق بهم . إنهم كذابون .» وقد رمى موظف ضخم قوي البنية ،يعمل في مكتب روبرت ، السيد لامبرت خارجا . (المقابلة مع روبرت سعيد في عمان بتاريخ ٢٣ كانون ثاني ١٩٩٧ موثقة لدى الكاتب) .

٥٦ . يذكر كاتب المقالة أن السجلات في فلسطين أيام الانتداب ١٩٣٢ ـ ١٩٤٨ ، بالإنجليزية والعبرية والعربية ، لا يرد فيها ذكر لوالدي إدوارد سعيد ، ولكنها تذكر بصورة مكثفة اسم بولص سعيد ، ابن عم والده . المترجم

٥٧ . يزود كاتب المقالة البحث بملحق يحدد من سكنوا البيت من ١٩٣٦ ـ ١٩٤٨ . المترجم

٥٨ . يشير الكاتب أن البيت بني ما بين عامي ١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ ، وأنه لم يستطع أن يحدد بالضبط تاريخ بنائه لأن سجلات البلدية في القدس دمرت في حريق أو

هجوم بالقنابل عام ١٩٤٤ . المترجم

٥٩ . يذكر الكاتب أنه أجرى مقابلات مع عدد من الذين سكنوا البيت على مدار سنوات مختلفة . المترجم

٦٠ . جدد والدا السيدة وينتروب ، ياكوف وإيلينا نيومان ، الطابق الأرضي في البيت حيث حوّلا ما كان مخزنا ومكتبة في السابق إلى مطبخ وحمام . وقد تركت عائلة نيومان البيت عام ١٩٨٣ . كانت والدة السيدة وينتروب من فيينا في الأصل ، أما والدها فمن بودابست ، وقد سكن الزوجان في أثينا ، حيث كان الزوج موزعا على نطاق واسع للكتب الألمانية . وقد هربت العائلة مستقلة آخر قارب غادر بيرايوس عام ١٩٤١ ، وسكنت في حيفا لفترة قصيرة قبل أن تستقر في القدس . وقد كان والد السيدة وينتروب يملك في ذلك الحين شركة للأطعمة تزود سلطات الانتداب البريطانية والسفارات والقنصليات الموجودة في مدينة القدس بالطعام ، ومن ضمنها القنصلية اليوغوسلافية التي تقع في الطابق العلوي للبيت . مقابلة مع روث (نيومان) وينتروب .

٦١ . يصف الكاتب الطابق العلوي للبيت قائلا إنه بارد في الشتاء ولا يصلح للسكن . المترجم

٦٢ . يذكر الكاتب أن عائلة الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر قد سكنت في الطابق الأول من البيت . المترجم

٦٣ . . . .

٦٤ . يذكر الكاتب أن الملك بيتر الثاني سكن في البيت من ٢١ نيسان ـ ٥ أيار ١٩٤١ . المترجم

٦٥ . روبرت ماركاند ، مصدر سابق ، ص : ١٠ .

٦٦ . اسم العمدة هو ر . م . غريفز . أنظر مذكراته : تجربة في الفوضى ، ١٩٤٩ ، ص : ١٠١ .

٦٧ . أصبحت غولدا مائير (وكان اسمها غولدي مايرسون) رئيسة وزراء إسرائيل ١٩٦٩ ـ ١٩٧٤ .

٦٨ . أنظر : يوري ميلستاين ، تاريخ حرب الاستقلال ، المجلد الأول ، ١٩٩٦ ، ص : ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

٦٩ . المصدر السابق .

٧٠ . يشير الكاتب إلى سجلات التجارة والصناعة في فلسطين خلال عامي ١٩٣٦

و۱۹۳۷ . المترجم

٧١ . مقابلة مع يهوديت أغاسي ، ومقابلة أخرى مع باربرا غولدشميت . وقد استخدمت عائلة بوبر طابق التسوية للكتب الفائضة في مكتبة مارتن بوبر .

٧٢ . لا زال صندوق بريد مارتن بوبر الأسود الكبير مثبتا على مدخل البيت الرئيسي إلى هذا التاريخ ١٩٩٩ . وتتذكر باربرا غولدشميت الصعوبة التي واجهتها العائلة في إزالة صندوق البريد دون أي نجاح ، عند حزمها ما تبقى من حاجياتها عام ١٩٤٢ .

٧٣ . تتذكر أغاسي أن مالك البيت كان يحضر للزيارة وهو يصطحب ولدين صغيرين . مقابلة مع يهوديت أغاسي .

٧٤ . مقابلة مع روث وينتروب .

٧٥ . إدوارد هو الولد الوحيد لوديع سعيد .

٧٦ . إدوارد سعيد ، « أرض آبائي المقدسة » ، مصدر سابق ، ص : ٤٩ ؛ وأنظر أيضا : إدوارد سعيد ، «فلسطين : فيما مضى والآن : رحلة منفي في إسرائيل والأراضي المحتلة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٧ ؛ وأنظر : إدوارد سعيد ، سياسة السلب ، ص : ٥ .

٧٧ . محاضرة سعيد في المؤتمر الدولي الخامس الذي عقدته جامعة بير زيت في بيت لحم في ١٢ تشرين ثاني ١٩٩٨ تحت عنوان «سيناريوهات لفلسطين» (في شريط تسجيل لدى الكاتب) .

٧٨ . تقول بابرا غولدشميت في المقابلة إن مالكة البيت ، التي كانت تسكن في الجوار وكانت تتردد على البيت كثيرا ، استفادت من قانون محلي كان يعطيها الحق في إخراج السكان إذا احتاجت البيت للاستعمال الشخصي . وقد قال محاميها أمام المحكمة إن نبيهة سعيد تعاني من التهاب المفاصل وهي بحاجة إلى الانتقال من المنزل الذي تسكنه ويعاني من الرطوبة . وكانت حجة عائلة بوبر ، التي كانت استأجرت المنزل بعقد طويل الأجل ، أن السيدة أغاسي تعاني أيضا من التهاب المفاصل وأن حالتها تزداد سوءا بسبب رطوبة المنزل . وتشير السيدة أغاسي أن عائلة بوبر قد قامت بعمل تحسينات في المنزل ، استنادا إلى عقد الإيجار طويل الأجل ، وحسنت وضع الحديقة . وبسبب أزمة السكن في فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية جاء إخلاء عائلة بوبر من البيت في أسوأ الأوقات . مقابلة مع إيهوديت أغاسي ، سبق ذكرها .

٧٩ . مقابلة مع باربرا غولدشميت ، سبق ذكرها .
٨٠ . أنظر : إدوارد سعيد ، بعد السماء الأخيرة ، ص : ١٨ .
٨١ . يشير الكاتب إلى أن الطابق الرئيسي من البيت كان مكونا ، قبل ١٩٤٨ ، من غرفة معيشة كبيرة الحجم ، وأربع غرف نوم ، ومطبخ صغير وحمامين . المترجم
٨٢ . يتحدث الكاتب عن كون الزيارات القصيرة ، حسب اعتقاده ، لا تعطي إدوارد سعيد الحق في الإدعاء بأن بيت الطالبية هو بيته! المترجم
٨٣ . إدوارد سعيد ، «فلسطين : فيما مضى والآن : رحلة منفي في إسرائيل والأراضي المحتلة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٨ ؛ وأنظر : إدوارد سعيد ، سياسة السلب ، ص : ١٧٧ .
٨٤ . إدوارد سعيد : رؤية شخصية جدا لفلسطين ، مصدر سابق .
٨٥ . المصدر السابق .
٨٦ . إدوارد سعيد ، خارج المكان ، ص : ١١٢ ــ ١١٣ .
٨٧ . يدعي الكاتب أن إدوارد سعيد لم يكن طالبا في سان جورج لأن اسمه لا يرد في سجلات المدرسة . ولكن الكاتب لا يستبعد أن يكون سعيد طالبا غير منتظم في المدرسة ، ولذلك لم يرد اسمه في سجلات المدرسة . المترجم
٨٨ . يقول الكاتب إن هيغ بورياجيان ، الذي كان طالبا في سان جورج وظل حتى الآن صديقا لإدوارد سعيد ، وهو مؤيد لآراء سعيد بخصوص النزاع الفلسطيني ــ الإسرائيلي ، أخبره أن سعيد كان طالبا في المدرسة . ويقول الكاتب أيضا إن بوياجيان لم يستطع أن يتذكر الفترة ، أو المدة ، التي كان فيها سعيد طالبا في مدرسة سان جورج . المترجم
٨٩ . أنظر : الهامش ٣٢ .
٩٠ . إدوارد سعيد ، مصدر سابق ، ص : ٤٩٣ ــ ٤٩٧ .
٩١ . أنظر : إدوارد سعيد ، «فلسطين : فيما مضى والآن : رحلة منفي في إسرائيل والأراضي المحتلة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٧ ، ٥٠ ؛ وأنظر : إدوارد سعيد ، سياسة السلب ، ص : ١٧٩ ، وكذلك : خارج المكان ، ص : ١١٣ .
٩٢ . روبرت ماركاند ، ص : ١٠ . ويتحدث الكاتب أنه لا تظهر في الصحف الصادرة في تلك الفترة أية إشارات إلى تلك التحذيرات . المترجم
٩٣ . يشير الكاتب أن هذه الحادثة تزيد الشك في كون عائلة سعيد كانت تقيم في القدس في نهاية ١٩٤٧ . المترجم

٩٤ . يوجه الكاتب القارئ إلى عدد من المصادر التي تؤرخ لتلك الفترة . المترجم
٩٥ . مارتن غيلبرت ، أطلس القدس التاريخي ، ١٩٧٧ ، ص : ٩٠ .
٩٦ . مقابلة مع ديفيد بن عزرا أشير إليها سابقا ، ومقابلة مع إفرايم ديجاني ، الذي كان يعمل مساعدا لقائد الهاجاناه في منطقة الطالبية في تلك الفترة .
٩٧ . . . .
٩٨ . ٢٠٪ من سكان الطالبية كانوا دبلوماسيين وصحفيين أجانب وموظفين بريطانيين ، وآخرين لم يكونوا من العرب أو اليهود . وقد كان العديد من الصحفيين وبعض الجواسيس يترددون على البار في فندق سلافيا في المنطقة . مقابلة مع إفرايم ديجاني .
٩٩ . ر . م . غريفز ، تجربة في الفوضى ، ص : ٣٠ .
١٠٠ . يشير الكاتب إلى ورود الخبر في صحف فلسطين ولندن بالإنجليزية وفي كتاب غريفز السابق ذكره . المترجم
١٠١ . . . .
١٠٢ . . . .
١٠٣ . يدعي الكاتب أن الرجال الثلاثة لم يكونوا مسلحين وأنهم طلبوا من العرب الرحيل لمنع إراقة الدماء بين الطرفين! المترجم
١٠٤ . يشير الكاتب إلى أن المؤرخ الإسرائيلي بيني موريس يقول إن طرد الهاجاناه للعرب من سكان الطالبية كانت دوافعه عسكرية! المترجم
١٠٥ . يشدد الكاتب على أن التحذيرات الموجهة للعرب حصلت في ١٢ شباط ١٩٤٨ استنادا إلى عدد من المصادر الإسرائيلية والبريطانية . المترجم
١٠٦ . يقول الكاتب ، استنادا إلى أقوال بنحاس بلومنتال قائد الهاجاناه في الطالبية في تلك الفترة ، إن الذعر لم يصب العرب في تلك الفترة وإنهم غادروا إلى بيت لحم وأريحا! المترجم
١٠٧ . يقول الكاتب إن صحيفتي «فلسطين» و«الدفاع» الصادرتين في تلك الفترة لا تذكران شيئا عن أن الحادثة المشار إليها وقعت في كانون أول ١٩٤٧ . المترجم
١٠٨ . يشير الكاتب ، استنادا إلى أقوال بنحاس بلومنتال ، أن القوات اليهودية لم تستول على حي الطالبية قبل رحيل القوات البريطانية . المترجم
١٠٩ . . . .

١١٠ . . . .

١١١ . كتب إدوارد سعيد : «مع بداية شهر شباط ١٩٤٨ كان حي الطالبية قد سقط في أيدي الهاجاناه .» أنظر : إدوارد سعيد ، «فلسطين : فيما مضى والآن : رحلة منفي في إسرائيل والأراضي المحتلة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٧ ، ٥٠ . ولا يمكن أن يكون ما «يتذكره» سعيد خاصا به ، فهو كان ، حسب كلامه هو ، يعيش مع عائلته في القاهرة في تلك الفترة . ويمكن أن يكون سعيد سمع عن الشاحنة التي تحمل مكبرا للصوت ، وعن نقاط التفتيش البريطانية كذلك ، من بعض اللاجئين (ومن ضمنهم أقاربه الذين ينتمون إلى عائلته الممتدة) الذين أجلوا من الطالبية في ربيع ١٩٤٨ . ويؤيد هذا الحدس ما يقوله سعيد نفسه : «في ربيع ١٩٤٨ ، بعد مذبحة دير ياسين مباشرة ، جاءت عمتي وعائلتها إلى القاهرة .» إدوارد سعيد ، بعد السماء الأخيرة ، ص : ١١٥ ــ ١١٦ .

١١٢ . زودتنا بهذه المعلومات هدى جندي ، صديقة سعيد في طفولته . ويؤكد سعيد نفسه هذه المعلومات في كتابه «خارج المكان» حيث يقول إنه التحق بمدرسة الجزيرة الابتدائية من ١٩٤١ إلى ١٩٤٦ ، مع بعض فترات الانقطاع ، ومدرسة القاهرة للأطفال الأمريكان من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٨ ، وكلية فكتوريا من ١٩٤٩ إلى ١٩٥١ . أنظر : إدوارد سعيد ، خارج المكان ، ص : ٣٦ ، ٨٢ ، ١٣٠ ، ١٤٧ .

١١٣ . إدوارد سعيد ، «أرض آبائي المقدسة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٩ ؛ جيمس وودول ، «لا تسير الأمور بصورة جيدة في ليل فلسطين» مراجعة لكتاب إدوارد سعيد «سياسة السلب» ، صحيفة الأوبزرفر (لندن) ، ٢٦ حزيران ، ١٩٩٤ .

١١٤ . أنظر : هامش رقم ٢٨ . ولكي أكون منصفا فإن بعض الحقيقة ظهرت في بعض المواضع القليلة خلال سنوات ، ومن ضمن ذلك مقالة في مجلة House & Garden ، مصدر سابق ، هامش رقم ١٩ . أما محاولاتي للحديث مع سعيد فقد فشلت إذ طلبت مقابلته ، من خلال مساعدته في جامعة كولومبيا زينب استرابادي ، ولكنني لم أتلق جوابا .

١١٥ . إدوارد سعيد ، «فلسطين : فيما مضى والآن : رحلة منفي في إسرائيل والأراضي المحتلة» ، مصدر سابق ، ص : ٤٨ ؛ وأنظر أيضا : إدوارد سعيد ، سياسة السلب ، ص : ١٧٧ .

١١٦ . دينيشيا سميث ، مصدر سابق ، ص : ٤٠ ، ٤٣ . يتكرر إدعاء سعيد بأن

مخزن الكتب الخاص بوالده أكثر من مرة . أنظر على سبيل المثال : جون سيغلر ، « فلسطيني يتكلم بالنيابة عن شعبه : سعيد يدعو إلى التسامح والفهم» ، مصدر سابق .

١١٧ . مقابلة أجراها سيث ويكاس مع إدوارد سعيد في ٢٣ آذار ١٩٩٩ في الناصرة ، في ملف مع المؤلف .

١١٨ . مقابلة مع إدوارد سعيد في Educational Broadcasting and GWETA, MacNeil/Lehrer News Hour بتاريخ ١ آب ١٩٩١ .

١١٩ . معين رباني ، «الرموز في مواجهة الحقيقة : عام على إعلان المبادئ» ، مجلة الدراسات الفلسطينية (الطبعة الإنجليزية) ، المجلد ٢٤ ، ١٩٩٥» .

١٢٠ . كريستوفر سايكس في كتابه Crossroads to Israel 1917 -1948 ، ص : ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

١٢١ . يدعي الكاتب أنه لا يناقش حق سعيد في دعم مطالبة اللاجئين الفلسطينيين بحقوقهم ، وأنه لا يناقش كون اللاجئين الحقيقيين قد تركوا فلسطين الانتدابية بسبب حرب ١٩٤٨ ، وفقدوا لذلك ممتلكاتهم . ولكنه ، كما يدعي ، يريد أن يناقش حق اللاجئين اليهود من الدول العربية بالطريقة نفسها . وهو لم يقرأ لإدوارد سعيد أي شيء يعترف بحق هؤلاء اليهود في ممتلكاتهم التي تركوها في البلدان العربية التي طردوا منها . المترجم

١٢٢ . إدوارد سعيد ، بعد السماء الأخيرة ، ص : ١٠٤ .

١٢٣ . . . .

١٢٤ . . . .

١٢٥ . يقتبس الكاتب من كتاب ر . م . غريفز «تجربة في الفوضى» ما يؤيد كلامه في أن المتظاهرين العرب ٢ كانون أول ١٩٤٧ أحرقوا متاجر اليهود في القدس . المترجم

١٢٦ . يشرح الكاتب استنادا إلى صورة مأخوذة للمكان في شهر كانون أول ١٩٤٨ أن سقف مخزن الكتب يبدو مدمرا وأن الكتب ومحتويات المخزن لا بد أن تكون قد تلفت بسبب عوامل الطبيعة وأيدي المارة في مدينة كانت واقعة تحت الحصار . المترجم

١٢٧ . . . .

١٢٨ . . . .

١٢٩ . يؤكد الكاتب أن الشركة الفلسطينية للتعليم كانت ملك بولص يوسف سعيد استنادا إلى مقابلات مع بعض من عملوا في الشركة . المترجم

١٣٠ . مقابلة مع إدوارد سعيد ، جيروزاليم تايمز ، ٦ آذار ١٩٩٨ .

١٣١ . يشير الكاتب مرة أخرى أن البيت مسجل باسم عمة إدوارد سعيد ، نبيهة ، وأبنائها يوسف وألبرت وروبرت وإيفلين . المترجم

١٣٢ . يشير الكاتب أن المؤسستين هما مركز أبحاث الأرض التابع لبيت الشرق ، والمركز الفلسطيني لحقوق الإنسان والبيئة . المترجم

١٣٣ . أنظر الهوامش : ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ .

١٣٤ . . . .

١٣٥ . . . .

١٣٦ . في مقالة بعنوان «تذكر القاهرة» ، مصدر سابق ، ص : ٢٠ ، ٣٢ ، يبدو سعيد معجبا بـ «شخصية عبد الناصر العظيمة ، وجاذبيته النارية ، وشخصه غير القابل للإفساد ، والتزامه غير المحدود بالوحدة العربية ، وعدائه للإمبريالية .» وأنظر أيضا : إدوارد سعيد ، سياسة السلب ، المقدمة .

١٣٧ . يكتب إدوارد سعيد عن «ذكرياته عن تلك الأيام والأماكن [فلسطين ، لبنان ، مصر] التي بقيت حية بكامل تفاصيلها والتي يبدو أنني لا زلت أحتفظ بها كما لو كانت بين صفحتي كتاب . «بين عالمين : إدوارد سعيد يعطي معنى لحياته» في London review of Books ، ٧ أيار ١٩٩٨ .

١٣٨ . إدوارد سعيد ، تمثيلات المثقف ، ١٩٩٤ .

١٣٩ . أنظر : هامش رقم ٢٥ .

١٤٠ . إدوارد سعيد ، «بين عالمين : إدوارد سعيد يعطي معنى لحياته» في London review of Books ، ٧ أيار ١٩٩٨ .

رد كريستوفر هيتشنز على مقالة فاينر

مدرسة كومنتري في التزييف

بقلم :كريستوفر هيتشنز

ترجمة : فخري صالح

يعود طلبة المدارس في إسرائيل هذا العام ليدرسوا مقررا جديدا في التاريخ ، فهم عوضاً عن دراسة الحكاية الدارجة ، المثيرة للشفقة والتي تهدف إلى تبرير كل ما فعلته إسرائيل ، عن حرب الاستقلال ، بما تتضمنه من أسطورة ديفيد وجوليات والبروباغندا الكاذبة حول عرب فلسطين الذين لم يُطردوا من بلادهم بل أمرهم قادتهم أن يهربوا ؛ عوضاً عن ذلك كله يتعلمون من النصوص الجديدة أن القوات الصهيونية كانت قد أعدت نفسها لتحقيق الانتصار بحلول عام ١٩٤٧ ، وأن هذه القوات قد احتلت فلسطين وطردت الفلسطينيين من بلادهم . وتعكس هذه الاعترافات ، التي يمكن القول إنها جاءت متأخرة مما يجعلنا نحجم عن وصفها بالشهامة وسماحة النفس ، بعض الثقة والصراحة وعدم التحيز ، وهي أمور نشأت من الاعتراف بالوجود الفلسطيني في اتفاقيات أوسلو . (ويمكن أن نميز أنواعاً أخرى من الاعتراف شاهدناها في

برامج وثائقية بثها التلفزيون الإسرائيلي العام الماضي بمناسبة مرور خمسين سنة على قيام دولة إسرائيل ، وهي سلسلة من البرامج يحسن بنا مشاهدتها على شاشات محطات التلفزيون الأميركية .)

لكن هذه المراجعة الحذرة المتأخرة لا تلقى قبولا لدى المتعاطفين مع أنماط أخرى من المراجعات ـ أي مع تلك النظرة الشوفينية المتعصبة المتحمسة التي تستلهم فكر فلاديمير جابوتنسكي . إن الامتعاض من «التنازلات» الإسرائيلية والدعاوى الفلسطينية بادٍ بوضوح [في صفوف هؤلاء] ، وقد عبّرت عنه أصدق تعبير مقالة تنضح بقدر غير عادي من الحقد والكذب والزيف . ظهرت هذه المقالة ، التي تتخذ لها عنوانا تهكمياً : («بيتي العتيق الجميل» وأكاذيب أخرى اختلقها إدوارد سعيد) ، في عدد شهر أيلول من مجلة كومنتري ووقّعها شخص يدعى جستَس رايد فاينر ، وهو يعمل في مركز القدس للشؤون العامة . فبعد أن يدعي أنه بحث لمدة ثلاث سنوات في تاريخ إدوارد سعيد الشخصي وتاريخ عائلته يزعم فاينر :

١ . أن سعيد لم يسكن في القدس في بيت تملكه عائلته عندما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني ، وأنه من ثمّ لم يُطرد من فلسطين .
٢ . وأنه «في الحقيقة» لم يدرس في مدرسة سان جورج في القدس .
٣ . كما أنه ترعرع ودرس في مدارس راقية في القاهرة .
٤ . وأنه من ثمّ لم يطالب بأية «تعويضات» عن أملاكه التي «فقدها» لأنه لم يعان نتيجة لذلك على الإطلاق .

والهدف من وراء ذلك كله هو القول بأن حكاية سعيد ، الذي اختلق سيرة وهمية ، تضع موضع الشك «الرواية» الفلسطينية عن الشتات وسلب الأرض . ولكن الأمر لن يستغرقنا أكثر من ثلاث دقائق لنتبين أن سنوات عمل فاينر الثلاث لم تكن سوى إضاعة ماكرة للوقت . ولدحض ادعاءات فاينر نقول :

١ . يؤكد ابن عمة إدوارد سعيد ، يوسف ، أن البيت الواقع في شارع برينر في القدس [الغربية] كان ملكا لعائلة سعيد كلها رغم أن البيت مسجل باسم عمة إدوارد . وقد ولد كل من إدواد وأخته جين في البيت نفسه ، وهما حدثان لا يمكن أن يحصلا مصادفة خلال زيارات عشوائية قام بها أبوا إدوارد سعيد . وعلينا أن نذكر أن يوسف سعيد يسكن في تورونتو [بكندا] لكن فاينر لم يتصل به على الإطلاق رغم أنه لا يعرف الكثير عن طبيعة العلاقات العائلية مما جعله يذكر في مقالته أن بولص سعيد هو عم إدوارد سعيد بدل القول إنه ابن عم أبيه . أما بخصوص الطرد من فلسطين فلم يذكر إدوارد مرة واحدة أنه عانى من ذلك ، وكل ما قاله هو أنه أخرج من المدرسة وأرسل إلى مصر لكي يلحقه بعد ذلك كل البالغين من أبناء عائلته الكبيرة التي كانت طردت في الحقيقة وسلبت منها أرضها وأملاكها في فلسطين .

٢ . إنني أعرف شخصيا ، نتيجة الحديث مع مدرسين وتلامذة عرفوا إدوارد ، أنه كان طالبا في مدرسة سان جورج في القدس ، كما كان والده قبله . وابن صفه الأرمني هيج بوياجيان ومعلمه ميشيل مرمورة يعيشان في أمريكا ويمكن سؤالهما عن ذلك . لكن فاينر ارتكب خطأ فادحا عندما روى

على لسان زميل لإدوارد في مدرسة سان جورج يدعى ديفيد عزرا يذكره إدوارد في مذكراته لكن ذكريات عزرا لا تتطابق مع ما يرويه إدوارد . وفي الحقيقة أن عدم تذكر صبي في المدرسة شيء ممكن لكن ابتداع وجود ذلك الصبي شيء شبه مستحيل .

٣ . أريد أن أقتبس من مقابلة مع إدوارد سعيد منشورة في الصفحات الأولى من كتاب «إدوارد سعيد : مختارات نقدية» ، الذي نشرته دار نشر بلاكويل عام ١٩٩٢ . يقول سعيد : « سأعود إلى الأيام الأولى التي أعي فيها وقائع حياتي في مدينة القاهرة . لقد ترعرعت هناك ، وقضيت فترة لا بأس بها من شبابي في القاهرة لكنني لم أكن مصريا في يوم من الأيام .» وفي موضع آخر تحدث إدوارد عن «محور بيروت ـ القدس ـ القاهرة حيث نشأ وترعرع» . كما أنه لم يُخف يوما حقيقة أن عائلته البرجوازية كانت بمنأى عن التأثر بالكارثة التي حلت بالفلاحين الفلسطينيين الذين طردوا من بلادهم . فبعد أن أمضى إدوارد سعيد كثيرا من الوقت في لبنان والقاهرة اختار الفترة التي أمضاها من صباه في فلسطين ووصفها بأنها كانت تمثل بالنسبة له «سنوات التكوين» . وهو شأن خاص به يستطيع أن يقرره هو المولود لأبوين فلسطينيين .

٤ . يمكن أن أذكر ، من بين معلومات كثيرة أعرفها عن صراع عائلة سعيد المرير للحصول على حق التعويض ، أن يوسف سعيد ، ابن عمة إدوارد ، قد حمل الأوراق الخاصة بأملاك العائلة في فلسطين ، قبل ثلاث سنوات فقط ، وأعاد تسجيلها في إسرائيل حيث إن جزءا آخر من أملاك العائلة قد هدم لتوسيع

الشـارع أمـام فندق الهـيلتـون في القـدس الذي كـان أنشئ حديثا .

كل ما ذكرناه سابقا ، وكثير غيره ، يسجله سعيد بأمانة مؤلمة في مذكراته التي ستظهر هذا الشهر بعنوان **خارج المكان*** . إنه يذكر العديد من الوضعيات الشاذة مثل حقيقة أن أمه ، المولودة في مدينة الناصرة ، قد حصلت في فترة متأخرة من حياتها على جواز سفر ذكر فيه أنها مولودة في القاهرة .

لقد أدعى فاينر ، بعد أن علم بقرب صدور مذكرات إدوارد ، أن الكتاب ألف للرد عليه . وبمعنى من المعاني فإن كتابا ضخما فُكر فيه عام ١٩٨٩ ، وبدأ المؤلف العمل عليه عام ١٩٩٤ (بعد أن أخبر الأطباء إدوارد أنه مصاب بمرض سرطان الدم) ، كما انتهي منه عام ١٩٩٨ ، كان نتيجة لمقالة مسلوقة في كومنتري لم تكن قد كتبت بعد!

يا للغرور ، ويا للروعة كذلك! إن مقلدي فاينر ، مثل كاتبي افتتاحية النيويورك بوست الذين يصفون سعيد بأنه « تاوانا برولي الفلسطيني» ، يكشفون عن سوقية غريبة منحرفة المزاج . وأنا لا أعرف مجلة أخرى يمكن أن تنشر مقالة كمقالة فاينر دون أن تسأل الشخص موضوع المقالة عن حقيقة ما ذكر فيها . لكن مجلة كومنتري لا يمكن أن يراودها هذا النوع من الشك . ينبغي أن نتعلم من كلام تشيسترتون ، في سياق مشابه ، أن المرء عندما يقرر أن أي شيء قابل للاستعمال فإنه يلتقط عصا معقوفة يرميها فترتد إلى نحره .

هوامش

* نشـــرت مذكـــرات إدوارد سعيد بالفعل في نهاية شهر أيلول ١٩٩٩ عن دار نشر ألفريد نوبف Alfred Knopf في لندن ونيويورك .

** كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens : كاتب وصحفي بريطاني يكتب في عدد من الصحف والمجلات الأمريكية . شارك إدوارد سعيد في كتابة مؤلف عن القضية الفلسطينية بعنوان «لوم الضحايا» (منشورات فيرسو ، لندن ، ١٩٨٨) . والمقالة هنا مأخوذة عن مجلة «ذا نيشن» ، ٧ أيلول ، ١٩٩٩ .

في الرد على فاينر أيضا

تشويه المنفيّ ومحاولة طمس الرواية

في مقالة كتبها قبل أشهر في مجلة مراجعات الكتب المعروفة **لندن ريفيو أوف بوكس** (٧ أيار ١٩٩٨) تحدث إدوارد سعيد عن الروائي الإنجليزي ، البولندي الأصل والمولد ، جوزيف كونراد مقارنا بين منفى صاحب **قلب الظلام** ومنفاه هو بعد رحيله القسري عن فلسطين أواخر عام ١٩٤٧ .

يقول سعيد عن كونراد ، وكأنه يتحدث عن نفسه : « حين نقرأ كونراد نشعر بثقل الإحساس بالاقتلاع وعدم الاستقرار والغربة . لا أحد يستطيع أن يصور مصير الضياع والخسران مثله .»

لقد كتب إدوارد سعيد الكثير عن كونراد منذ أنجز عنه رسالته للدكتوراه في جامعة هارفارد ، ثم عدّلها ونشرها عام ١٩٦٥ تحت عنوان **جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية** . كان كونراد ثيمة أساسية في كل ما كتبه سعيد تقريبا يتردد صدى حياته كشخص مقتلع في كتابات المفكر الفلسطيني الأصل ، الأمريكي الجنسية ، كما تلقي رواياته بثقل أفكارها ، وتصويرها لمصائر شخصياتها الإشكالية وفضائها الملتبس ، ظلها المديد على ما يشغل

تفكير إدوارد سعيد وما ينجزه من حلول ثقافية لمعضلات الوجود والعيش في هذا العالم، خصوصا تلك المعضلات التي تواجه الفئات المهمشة، والشعوب المقتلعة، والغرباء المرفوضين في المجتمعات العرقية، واللامنتمين داخل الثقافات المركزية في الغرب.

كان كونراد حاضرا، على الدوام، في عمل إدوارد سعيد لأن الأخير يرى في سيرة حياة الأول تقاطعا مع سيرته الشخصية، رغم أن كونراد اختار منفاه بنفسه، كما اختار الانتماء إلى الثقافة الإنجليزية بمحض إرادته، فيما دُفع إدوارد إلى اختيار الثقافة الإنجليزية من قبل والديه وشُرِّد من وطنه، مثله مثل بقية أفراد عائلته ومثل أعداد كبيرة من شعبه الفلسطيني، بسبب الإرهاب الصهيوني وقيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين التاريخية. لكن هذا التباين بين السيرتين لا يجعل إدوارد يشيح ببصره عن اللقاء السري الذي يعقده بين مصيره الشخصي ومصير كاتبه الروائي الأثير الذي خصه بالعديد من الكتب والدراسات والملاحظات العميقة السابرة المتفحصة الشديدة الألمعية والذكاء. وهو من خلال مقارنته بين سيرته كمنفي ومقتلع وسيرة كونراد، الذي حاول جاهدا الذوبان في الثقافة والمجتمع الإنجليزيين، يعطي سيرته الشخصية وسيرة شعبه الفلسطيني المقتلع بعدا كونيًا ومسحة إنسانية شديدة العمق والتأثير في الجمهور الغربي الذي يوجه إليه خطابه؛ خصوصا أن إدوارد سعيد يشدد في كل ما يكتبه، من نقد ودراسات ثقافية ومقالات سياسية، على البعد الدنيوي للثقافة وعلى الاتصال العميق بين الكتابة والعيش في هذا العالم.

عبر هذا الوعي العميق ، الشامل والكوني ، لتعالق مصائر البشر والشعوب والأفراد ، والإيمان بالتشابه القائم بين تجارب المنفيين والمقتلعين من أوطانهم ولغاتهم وثقافاتهم ، استطاع إدوارد سعيد أن يصبح واحدا من أبرز المفكرين في القرن العشرين ومن أكثرهم حضورا وتأثيرا في عالمي الثقافة والإعلام رغم محاولات الأجهزة الصهيونية في أمريكا والغرب التعتيم على عمله ومنعه من إيصال صوته ، بصفته المتكلم الأبرز باسم الفلسطينيين في العالم الغربي ، إلى أوسع دائرة من القراء والمستمعين والمشاهدين في الغرب . لكن هذه المحاولات المستميتة ، التي استمرت على مدار ربع قرن على الأقل ، لم تنجح في لجم صوت إدوارد سعيد بل زادته إيمانا بدوره السياسي لتوضيح حجم الظلم الذي وقع على شعبه الفلسطيني . وقد ساعده على تحقيق هذه المهمة ، التي نذر نفسه لها ، ضخامة إنجازه في النقد الأدبي وحقل الدراسات الثقافية وعمق أفكاره التي يطرحها واتساع دائرة انشغالاته الثقافية . لقد أصبح شهيرا ومؤثرا ، له تلامذة ومريدون ومعجبون في كل أنحاء العالم ، بحيث أصبح صعبا أن تنال منه الدوائر الصهيونية والصحف ووسائل الإعلام الموالية لها .

لكن قرب صدور مذكراته **خارج المكان** (وقد صدرت عن دار نشر كنوبف في نهاية أيلول ١٩٩٩) أثار في «باحث» مجهول يدعى جستس رايد فاينر شهية التشكيك في سيرة إدوارد سعيد مدعيا أن سعيد لم يعش في القدس يوما بدليل أن سجلات مدرسة سان جورج لا تتضمن اسمه وأن البيت الذي قال سعيد إنه كان يسكنه مع عائلته مسجل باسم عمته!

تلك هي الرواية المهلهلة التي انطلقت على خلفيتها الحملة الإعلامية البغيضة التي بدأتها مجلة كومنتري الصهيونية الأمريكية ، وكانت وصفت إدوارد سعيد قبل سنوات بـ « بروفيسور الإرهاب» ، ثم تبنت الحملة صحيفة الديلي تلغراف البريطانية ، ذات الميول الصهيونية ، معيدة «تفكيك إدوارد سعيد» على صفحاتها مدعية أن «المنفي الفلسطيني زيّف قصته» وادعى « أنه طرد من القدس رغم أنه لم يعش فيها»! لكن إدوارد سعيد لم يدع يوما أنه عاش فترة طويلة من حياته في القدس . لقد ولد في القدس عام ١٩٣٥ ودرس في القاهرة ، حيث كان والده يدير عمله هناك ، ثمّ عاد إلى القدس عام ١٩٤٧ ليدرس في مدرسة سان جورج التي تنتهي سجلاتها عام ١٩٤٦ ، ولهذا لم يظهر اسم إدوارد ببساطة في سجلات المدرسة .

ماذا تقول سيرة إدوارد سعيد الذاتية «خارج المكان»*

يستطيع قارئ **خارج المكان** أن يتبين محاولة إدوارد سعيد القبض على اللحظات العابرة البعيدة في حياته في سرد حي يثبّت أمكنة وأزمنة لم تعد موجودة . وهو إلى جانب وصفه الدقيق التفصيلي للأماكن والأحداث التي تركت علامات لا تمحى في حياته الشخصية وحياة من حوله يعمل على إعادة تركيب صورته الشخصية ، أو أناه الداخلية ، في سرد يميط اللثام عن مشاعره المحبوسة تجاه أشخاص لعبوا أدوارا كبيرة في حياته : والدته ، ووالده ، وعمته نبيهة ؛ إذ أن كل واحد من هؤلاء كان له أثره المختلف على مسار حياة إدوارد . وهو يعرض طبيعة مشاعره تجاه هؤلاء الأشخاص راسما لقارئه صورة المكان المنسحب على خلفية هذه المشاعر . فقد تنقلت العائلة ما بين القدس والقاهرة ولبنان (ضهور الشوير حيث كانت العائلة تقضي الصيف في نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات) .

ولا يدعي إدوارد سعيد أنه عاش فترة صباه كلها في حي

الطالبية الذي كان جزءا من غربي مدينة القدس ، فقد كان والده وديع مستقرا في القاهرة قبل ولادته ولكنه كان يحضر بين فترة وأخرى إلى القدس ، كما أن إدوارد ولد في القدس عام ١٩٣٥ لأن مولود العائلة الأول توفي في أحد مستشفيات القاهرة مما جعل وديع وزوجته هيلدا يتخوفان من حصول الشيء نفسه مع إدوارد فقررا العودة إلى القاهرة لتتم الولادة في بيت عائلة سعيد الكبيرة في القدس .

إن الفصول الأولى تعرض بوضوح تنقلات العائلة في المكان والجغرافيا ما بين القدس ورام الله والقاهرة وضهور الشوير ، والرحلات التي كانت تقوم بها عائلة سعيد الصغيرة إلى مدن فلسطين التي كان يسكنها عدد من أقرباء والدته ووالده . ولا يخفي إدوارد ، في التفصيلات الكثيرة التي يرويها عن إقامته في القاهرة ودراسته في مدارسها وتردده على نواديها وطبيعة حياته المرفهة فيها ، أن القاهرة احتلت جزءا أساسيا من تكوينه النفسي والثقافي ، وأن القدس شكلت ، إلى فترة رحيله عنها مع أبيه وأمه وأخواته في نهاية عام ١٩٤٧ بسبب الاضطرابات التي سبقت احتلال الهاجاناه للمدينة ، الزمان الفردوسي في فترة طفولته وأوائل شبابه . ولا يستطيع أحد أن يجادل المرء فيما يعده أساسيا من أحداث حياته ، في الوقت الذي لا يجوز لأحد أن يجرد إدوارد من فلسطينيته لمجرد أن عائلته الصغيرة عاشت سنوات ممتدة في القاهرة ، حيث كان وديع سعيد يدير عمل العائلة الذي كان فيه شريكا مع ابن عمه ومن ثمّ مع أخته نبيهة وأبنائها بعد وفاة ابن العم .

إن المذكرات واضحة بشأن هذا الموضوع وهي تعرض بالتفصيل

للمشكلات التي ظهرت بين وديع سعيد وأبناء أخته نبيهة ، بعد انتقال معظم أفراد عائلة سعيد الكبيرة ، بعد النكبة وسقوط القدس في أيدي الهاجاناه ، إلى القاهرة .

ورغم أن تركيز المذكرات ينسحب إلى وصف ما يحاول إدوارد سعيد استعادته من حياته الماضية ولحظات عمره المنقضية ، إلا أن الكشف عن الطبيعة المعقدة لحياة العائلة ، الكبيرة والصغيرة ، يتوضح في ثنايا السرد التفصيلي الذي يسعى إلى تقديم لوحة بانورامية لحياة إدوارد والمحيطين به . صحيح أن القاهرة تحظى بنصيب الأسد في هذه المذكرات ، لكن ذلك متأت من كون إدوارد درس في مدارسها بصورة أساسية ، وهو لم يقض فترة طويلة في مدرسة سان جورج بسبب رحيل العائلة إلى القاهرة في فترة اندلاع الشرارة الأولى للحرب قبل أن تسقط القدس الغربية في أيدي اليهود بعد أشهر . ولا أظن أن ذلك يمثل أي تحوير في سيرة حياة إدوارد ولا يشكك في فلسطينيته التي يدافع عنها ، لا بوصفه ولد في القدس أو أن أبويه فلسطينيان فقط ، بل بدافع من انتمائه الثقافي والتزامه الأخلاقي الذي يشدد عليه في مقالاته وأبحاثه وكتبه .

لقد كتب إدوارد سعيد **خارج المكان** بعد أن اكتشف إصابته بسرطان الدم (اللوكيميا) عام ١٩٩١ ، وكتبت معظم فصول الكتاب أثناء فترات الراحة من العلاج الكيماوي ما بين عامي ١٩٩٤ ـ ١٩٩٨ . وهكذا بدأت المذكرات على شكل رسالة كتبها المؤلف لأمه المتوفاة ثم انبثقت فكرة تثبيت تلك اللحظات الماضية ، وبعث الشخصيات ، التي لعبت دورها في حياة إدوارد سعيد ، حية على الورق .

لم يرد المؤلف أن يكتب سيرة حياته كمثقف ومفكر مؤثر في نظرية الأدب المعاصرة بل رغب أن يسجل وقائع حياته اليومية من منتصف الثلاثينيات إلى بداية الستينيات بعد تخرجه من الجامعة وحصوله على درجة الدكتوراه في الأدب . ولهذا السبب يفتقر الكتاب إلى الطبيعة التأملية ، التي يتوقع أن تميز كتابة ناقد ومفكر في حجم إدوارد سعيد . لكن ظروف كتابة «خارج المكان» ، وتأثيرات المرض والعلاج ، دفعت المؤلف إلى كتابة حكايته الشخصية وما يتصل بهذه الحكاية من حكايات الآخرين بحيث تبدو سيرة إدوارد سعيد لا مجرد شرح للأفكار التي آمن بها وطورها في كتاباته وأبحاثه ، بل سيرة للآخرين أيضا الذين هم عائلته وأصدقاؤه ورفاقه في المدرسة والجامعة ، وشعبه المقتلع المنفي «المبعد» من المكان . ومن هنا تركيزه على علاقته المعقدة بأبيه ، الذي يصفه بأنه شخصية فكتورية تركت ظلالها على حياته وأثرت عميقا في داخله وجعلته يفضل العزلة والابتعاد داخل شرنقته . أما الأم فهي تستأثر بالجزء الأكبر من صفحات الكتاب . إنها بطل الحكاية الحقيقي والشخص الذي يستأثر بالوصف في **خارج المكان** لأنها كانت الموجه الفعلي لإدوارد في الحياة والاهتمامات ، إذ فتحت له آفاق الاهتمام بالأدب والفن والموسيقى ودفعته إلى اكتشاف مواهبه الحقيقية والمثابرة على صقل هذه المواهب ؛ ولم تبخل الأم في توجيهه والاهتمام به طوال حياتها ، على عكس والده الذي يبدو ، في المذكرات ، شخصية أبوية السمات تكره إظهار عواطفها أمام الآخرين ، وتكتفي بتوفير الرفاه المادي للزوجة والأبناء .

يبدو **خارج المكان** في هذا السياق كتابا أمينا للمشاعر الداخلية التي سكنت إدوارد سعيد في طفولته وصباه ، فهو لا

يزيف الأمكنة والوقائع والأحاسيس ، ولا يزور مكان ولادته أو أمكنة دراسته ، أو جنسيته وانتماءه .

لقد روى إدوارد سعيد حكايته الشخصية ، كشخص مرتحل في الجغرافيا وعلى حدود الثقافات ، ومن هنا اقتران حكايته الشخصية بحكاية كونراد ، ولم يغفل يوما من الأيام عن وصف أيامه التي عاشها في القاهرة وأمريكا ، وعلى التشديد بأن أباه الفلسطيني كان يحمل الجنسية الأمريكية ، كما أن أمه الفلسطينية لم تستطع طوال حياتها الحصول على الجنسية الأمريكية وكانت تنتقل بصعوبة بين البلدان التي يرتحل إليها زوجها ، لأنها ببساطة كانت تحمل جواز سفر فلسطينيا لم يعد صالحا بعد نكبة ١٩٤٨!

إن إدوارد سعيد يحكي لا قصته الشخصية بل قصته كفلسطيني اضطرت عائلته أن تغادر بيت العائلة في حي الطالبية ، فيما أضبح يعرف الآن بالقدس الغربية ، في نهاية عام ١٩٤٧ بسبب بسط اليهود أيديهم على ذلك الحي من أحياء القدس ، مما جعل وديع سعيد ، والد إدوارد ، يفضل الرحيل إلى القاهرة حيث كان يدير فرع أعمال العائلة .

إن حكاية إدوارد سعيد إذن هي حكاية فلسطينية نموذجية ، بغض النظر عن كونه ابن عائلة ميسورة استطاعت أن تدير أعمالها في فلسطين والقاهرة وتمتلك بيتا في القاهرة وبيتا في القدس . ولا ينتقص من نموذجيته كشخص منفي كونه درس في مدارس إنجليزية كولونيالية ليذهب بعد ذلك للدراسة في جامعتي برينستون وهارفارد الأمريكيتين ويعمل من ثمّ مدرسا للأدب الإنجليزي والأدب المقارن في جامعة كولومبيا الأمريكية الشهيرة .

وهكذا فإن احتلال فلسطين ، وتشريد شعبها ، قد ولّد مأساة شخصية في حياة إدوارد وإحساسا دائما مريرا بالنفي والاقتلاع ، ولم يكن ضروريا أن يعيش الرجل في المخيم ويقاسي شظف العيش حتى تصدقه الدوائر الصهيونية ووسائل الإعلام الموالية لها في الغرب ؛ فهذه الدوائر ظلت إلى وقت قريب تنكر وجود الشعب الفلسطيني وتنكر اقتلاعه من قبل إسرائيل . فإلام تهدف هذه الحملة الواسعة المتعددة الأطراف ، المعد لها بذكاء شديد ، على المثقف الفلسطيني البارز واسع الانتشار إدوارد سعيد؟

لقد رغب فاينر ، ومن موّل عمله «البحثي» ، التشكيك في مصداقية إدوارد سعيد وتلويث سمعته الشخصية والمعرفية لكي يصبح من السهل التشكيك في الرواية الفلسطينية كلها . فإذا كان إدوارد سعيد ، المثقف الذي يتمتع شخصه وعمله بصدقيّة عالية في المؤسسات الأكاديمية ووسائل الإعلام الغربية ، كاذبا فماذا نقول عن «مئات آلاف الفلاحين الذين يدعون أنهم طردوا من فلسطين عام ١٩٤٨» كما كتب إدوارد نفسه في الحياة (٢٨ آب ١٩٩٩) . لكن التأمل في حيثيات هذه المعركة الأخيرة يثبت أنها مجرد زوبعة في فنجان فهي أتاحت لسعيد ، دون أن تقصد ، توضيح روايته الشخصية لاقتلاع شعبه وتبيان الخيوط الشخصية في الحكاية التي تترابط مع حكايات عدة ملايين من الفلسطينيين المقتلعين من أرضهم فيما يتمتع كل يهودي في العالم بـ «حق العودة» إلى فلسطين!

هوامش

١ . أنظر :

Edward Said, Out of Place, Alfred A. Knopf, New York, 1999.

٢ . فاز كتاب «خارج المكان» بجائزة مجلة نيويوركر ، الأميركية الشهيرة ، للأعمال غير الروائية ، وذلك ضمن جوائزها التي أعلنت عنها في نهاية شهر شباط عام ٢٠٠٠ . وقد وصفت لجنة تحكيم الجائزة سيرة إدوارد سعيد الذاتية بأنها «توثيق لسجل المكان الذي ولد فيه الأستاذ الجامعي البارز إدوارد سعيد وقضى فيه طفولته : بدءا من شوارع القدس وصولا إلى القاهرة في فترة الاستعمار» ، في إشارة واضحة إلى المكان المقدسي الذي حاول فاينر أن يمحوه من حياة إدوارد سعيد .

القسم الثاني

قراءات في ثلاثة من كتبه
ومناقشة لبعض أفكاره

إدوارد سعيد وصورة الفلسطينيين

إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة ؟
أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة ،
أين تنام النباتات بعد الهواء الأخير ؟
سنكتب أسماءنا بالبخار الملوّن والقرمزيّ ،
سنقطع كفّ النشيد ليكمله لحمنا
هنا سنموت . هنا في الممرّ الأخير ،
هنا أو هنا سوف يغرس زيتونه ... دمنا

محمود درويش ، ورد أقل ، ص : ١٧

في كتابه **ما بعد ـ باختين : مقالات في الرواية والنقد**(١) يتحدث الناقد البريطاني ديفيد لودج عن إدوارد سعيد بصورة قدحية تشكك في صيغة انتشاره وطبيعة إسهامه النقدي في الإنتاج النقدي المعاصر في العالم الناطق بالإنجليزية . ويزعم لودج أن سطوع نجم سعيد يعود إلى وجود جالية يهودية قوية في أمريكا مما يجعل بروز اسم فلسطيني أمرا متوقعا لما سيثيره هذا الفلسطيني من جدل في

الأوساط الأمريكية لوجود نقيضه القوي الفاعل على الساحة . ورغم أن لودج ، وهو ناقد كبير ومتابع للنقد في العالم ، يسوق هجومه على سعيد ضمن حملة مركزة على النقد في الجامعات الأمريكية إلا أنه ينتقيه من بين أسماء عديدة ليحط من قدر عمله و يبخس إسهاماته النقدية التي أثارت جدلا واسعا في الأوساط النقدية العالمية . ويبدو أن الهجوم يندرج في سياق التنافس النقدي الحاد الذي يجري في إطار النقد الأنجلو ـ ساكسوني .

ومع أن هجوم لودج لا ينتقص كثيرا من قدر إدوارد سعيد ولا يجرد أعماله النقدية من جدتها وجديتها ، وعمقها وقدرتها على إثارة الجدل والحوار حولها ، إلا أن ذلك يذكرني بالتقديم غير الجدي لهذا الفلسطيني في ثقافتنا العربية واختزاله إلى مجرد صاحب رأي سياسي ومنافح عن القضية الفلسطينية في الغرب ومنتقد للسياسات الفلسطينية والعربية في أشكال تعاملها مع أمريكا و عدم عملها على استراتيجيات تؤثر في الرأي العام الأمريكي .

هناك ثلاثة كتب فقط ترجمت له إلى العربية هي **الاستشراق** و**تغطية الإسلام** و**الثقافة والإمبريالية** ، إضافة إلى كتابه الذي أصدره بالعربية **غزة ـ أريحا : سلام امريكي** ، وهو موجه الى القارئ العربي بصورة خاصة . وهذه الكتب ، كما يلاحظ من عناوينها ، تدور حول أسئلة وموضوعات ساخنة تجذب اهتمام القراء من مشارب متنوعة لاتصالها بإشكاليات حياتهم اليومية . لكن مجمل إنتاج إدوارد سعيد النقدي ليس معروفا للقارئ العربي ، وتطور هذا الناقد الكبير ليس واضحا حتى للمثقفين والنقاد العرب . إنه ببساطة صاحب **الاستشراق** الذي أثار جلبة واسعة

في أوساط المهتمين بالاستشراق وصاحب النظرية التي تقول إن الغرب قد اخترع الشرق ، في الكتابات الاستشراقية ، وصَوّر استيهاماته عن هذا الشرق ؛ أما بقية نتاجه المهم فليس معروفا للقراء العرب المهتمين .

لقد أنتج صاحب **الاستشراق** عددا من الأعمال النقدية الأساسية في الفكر الغربي ، فمنذ أصدر كتابه الأول **جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية** (١٩٦٦) لفت إدوارد سعيد الأنظار ، ثم قدم كتابه **بدايات** الذي أبان فيه عن شخصية ناقد كبير يعرف النقد الفرنسي معرفة سمحت له بتقديم البنيوية ومتفرعاتها لقراء اللغة الإنجليزية ، وتقديم دراسة متميزة كذلك عن مفهوم «بداية» العمل الأدبي وأثر «البداية» على بنية النص . أما في كتابه **العالم والنص والناقد** فإنه يواصل العمل على الموضوعات الأساسية التي عالج بعضها في **الاستشراق** و**بدايات** و**جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية** .

يثبت إدوارد سعيد في كتبه العديدة ، التي تغطي مساحات واسعة من الاهتمامات وميادين العمل الثقافية بدءا من الدراسة الأدبية العملية (النقد العملي ــ التطبيقي) ، مرورا بتاريخ أنظمة الفكر والنقد الموسيقي والنقد السياسي ، وانتهاء بالمزاوجة بين آفاق متنوعة من الممارسات الثقافية ، أن شخصيته الثقافية الغنية بحاجة إلى قراءة تركيبية .

كتابه **بعد السماء الأخيرة** [٢] هو ثمرة العمل في هذه

الميادين جميعا ، حيث يستفيد من إنجازه في حقل الاستشراق وما يسمى الدراسات الشرقية أو الإقليمية ، وكذلك دراسته للقضية الفلسطينية في كتابيه **القضية الفلسطينية ولوم الضحايا** (الكتاب الأخير أسهم سعيد في كتابة بحوثه بصورة أساسية كما قام بتحريره بالتعاون مع كريستوفر هيتشنز) ، للتوصل إلى قراءة حالة الفلسطيني من خلال الصور التي صورها جان موهر وكتب سعيد نصه انطلاقا منها .

يكتب إدوارد سعيد : «ليس هذا الكتاب كتابا موضوعيا» . لقد كان قصدنا نحن الإثنين أن نرى الفلسطينيين بأعين فلسطينية» . (ص : ٦) وهو يعلن بذلك عن الشكل الذي سيأخذه الكتاب في رحلة بين العين الرائية (عين كاميرا المصور السويسري جان موهر) وعين الآخر الرائية من خلال النص الذي يكتبه إدوارد سعيد منطلقا من أرضية الصور ، بما تستثيره فيه الصور من انفعالات وأحاسيس وذكريات وتأملات . ورغم ذلك لا يبدو النص مبعثرا دون مركز ، مشتتا بين الصور والنص المكتوب . إن الصور تتضافر في تقديم خلفية للنص إذ تصطدم بها عين القارئ وهي تتابع النص المكتوب الذي ينطلق من الصور ليعيد لحم ما تثيره الصورة فيه من إحساس عبر انثيال الذكريات أو التأملات السياسية والنظر في مصير الفلسطيني المقتلع خارج أرضه وداخلها .

ليس ثمة أفضل من هذه الطريقة في الكتابة ، التي تستفيد من الصورة الحية ، لعرض إشكالية الوجود الفلسطيني أمام العين والذهن الغربيين . كاميرا من الغرب وعين شارحة من فلسطين ونص يستفيد من فهم المؤلف لدور المثقف العضوي ، بالمفهوم الغرامشي للتعبير ، الذي يعادل مفهومه لضرورة أن يكون الكاتب

«دنيوي» النزعة ملتصقا بشروط عصره يتخذها منطلقا لمشاركته في إيجاد أجوبة على الأسئلة التي يطرحها عصره عليه ، وأن يكون بهذا المعنى جزءا من «الإمكانيات الاجتماعية والفعاليات السياسية »[٣] لهذا العصر .

انطلاقا من الفهم السابق لطبيعة مشاركة المثقف السياسية والاجتماعية يأخذ كتاب سعيد **بعد السماء الأخيرة** شكلا من أشكال الدمج بين المادة الموضوعية المتوفرة بين يديه ، بما في ذلك الصور التي صورها جان موهر ، والذكريات الشخصية التي توفر مادة حية تتمتع بقدر كبير من الحميمية ، وتعطي الكتاب طابعا سرديا يكشف عن المعاناة الوجودية الكبرى للفلسطينيين الذين اصبح سعيد واحدا من أهم الناطقين باسمهم في الغرب ، في أمريكا أولا وفي بريطانيا أيضا بصورة متزايدة في السنوات الأخيرة[٤] .

تبدأ حكاية الكتاب من مهمة كلف بها إدوارد سعيد عام ١٩٨٤ للتحضير لمؤتمر دولي تعقده الأمم المتحدة حول القضية الفلسطينية . وقد اقترح سعيد على المسؤولين في الأمم المتحدة ضرورة أن تقوم الهيئة المنظمة للمؤتمر بتعليق صور أخذها المصور السويسري جان موهر للفلسطينيين في كل أماكن تواجدهم ، داخل فلسطين وخارجها ، على مدخل القاعة التي سيعقد فيها المؤتمر . ولكن المسؤولين في الأمم المتحدة قرروا ، بعد أخذ ورد ، أن تعلق الصور هكذا دون شرح أو تعليق ، دون أية إشارة سوى كلمة واحدة تعلن عن البلد الذي أخذت فيه الصورة . وقد قرر سعيد بعد هذه التجربة ، التي يعلق عليها في مقدمة الكتاب[٥] (ص : ٣ــ ٤) ،

أن يقوم بتأليف كتاب تكون فيه هذه الصور ، التي لم يقيض لها أن تعرض بالطريقة التي تشرح معاناة الفلسطينيين وأشواقهم إلى الحرية وتقرير المصير وإقامة دولتهم المستقلة ، منطلقا لنصه المكتوب . لكن الصور لا تقيد حركة سعيد في الزمان أو المكان ، فالتعليق ، أو السرد ، ينهض منها ليستكمل المشهد الصامت الذي تنقله الصورة مضفيا على الصور حيوية ومعطيا لها معنى في سياق النص حيث يتبادل النص والصورة أحيانا توضيح بعضهما بعضا وجلاء الغامض فيهما .

إن المطلع على نصوص سعيد ، سواء منها التي تتناول حقولا معرفية مثل النقد الأدبي أو الاستشراق ، ونسله من المعارف ، أو حتى كتاباته السياسية عن فلسطين ومقالاته في التعليق على الأحداث والتطورات الدولية بشأن فلسطين والمنطقة العربية ، يعثر على فكرة المنفى مبثوثة في كتاباته ، تلك الفكرة المركزية التي تصبح بؤرة إشعاع متصل في نص إدوارد سعيد الحالي ونصوصه الأخرى وعلى رأسها كتابه المميز **الثقافة والإمبريالية**(٦) . وهو في **بعد السماء الأخيرة** يستعيد وضعيته كمنفي بالمعنيين السياسي والثقافي ، ويشرح لقارئه الأجنبي كيف أصبح هو وعائلته منفيين من الوطن (ص : ١٨-١٩) ، ويوضح هذا الوضع بالنسبة له ولباقي الفلسطينيين :

«لقد تبخر من حياتي وحياة الفلسطينيين جميعا ثبات الجغرافيا وامتداد الأرض . وحتى لو لم يقم أحدهم بإيقافنا على الحدود أو سوقنا إلى مخيمات جديدة أو منعنا من الدخول أو الإقامة أو السفر من مكان إلى آخر ، فإن أراضينا يجري احتلالها ويتدخل الآخرون

في حياة كل منا بصورة اعتباطية وتمنع أصواتنا من الوصول إلى بعضنا بعضا ؛ إن هويتنا تُقيد وتحبس وتحاصر في جزر صغيرة خائفة ضمن محيط غير مضياف تحكمه قوة عسكرية عليا تستخدم رطانة إدارة حكومية تؤمن بالطهارة [العرقية] الخالصة .» (ص : ١٩-٢٠)

من هذا الشعور بالاندراج في المشهد الذي يكتب عنه إدوارد سعيد تأتي وحدة الكتاب والناظم الداخلي الذي يجعل النص متماسكا وممتدا على مدار الصفحات المائة وأربع وسبعين . ويعمل المؤلف على توضيح هذا التشابك بين المادة الموضوعية في الكتاب والمادة المتصلة بذكريات الكاتب ومشاعره الشخصية وحضوره البالغ في نصه وانطلاقه بصورة أساسية من التجربة الشخصية الخاصة به وبعائلته . إن سعيد يوضح لقارئه أن هناك صعوبة في تعيين هوية الفلسطينيين لأن جسما ضخما من المادة الإعلامية والأبحاث (!) قد اختصرت الفلسطينيين إلى مجرد صور نمطية متداولة في الغرب عن الفلسطيني اللاجئ أو المقاتل أو الإرهابي أو المنبوذ الذي لا هوية له (ص : ٤)(٧) . ومن هنا فإن مهمة أساسية من مهمات كتاب **بعد السماء الأخيرة** تتمثل في العمل على تغيير هذه الصورة النمطية للفلسطيني في الغرب عبر عرض جوانب من حياة الفلسطينيين مصورة ومصحوبة بنص سردي ينتقل من حقل الكتابة التاريخية إلى حقل الدراسة الإحصائية ، ومن ثمّ إلى التعليق على الواقع الثقافي والأدبي للفلسطينيين المعاصرين ، إضافة إلى التأمل الذاتي وسرد الذكريات .

يعلق سعيد على نقطة انطلاق نصه قائلا : «لقد وجدت نفسي

عندما بدأت في كتابة هذا الكتاب أتنقل بين الضمائر ، من «نحن» إلى «أنتم» إلى «هم» ، لكي أكون قادرا على تعيين هوية الفلسطينيين» (ص :٦) . ويبدو هذا التنقل بين الضمائر نابعا من إيمان سعيد بأن التاريخ الفلسطيني ، بسبب من تجربة المنفى ، قد افتقد المركز الذي يوفره ثبات الجغرافيا و امتداد الأرض . لكن تجربة المنفى والشعور بالمعاناة هي في نظره الناظم المركزي وما يوحد التجربة الوطنية للشعب الفلسطيني ، بالفعل ، رغم أن المنفى الفلسطيني بحسب إدوارد سعيد «خفي غير ظاهر ، وهو بالنسبة لكل منا شيء شديد الخصوصية» (ص : ٥) .

لقد أدى هذا الارتباط الحميمي بفكرة فلسطين بالفلسطيني إلى أن يضيع معنى المكان ، أن يفكر بفلسطين بوصفها قطعة من الأرض مزدحمة بالبشر طرد هو منها . وهكذا ، وحسب سعيد ، فإن «أية محاولة لاستعادة الهوية الفلسطينية هي أيضا محاولة للعودة إلى الخارطة ، لمساعدة فلسطينيي الداخل على الحفاظ على ثباتهم المهدد» (ص : ٦٢) على أرض فلسطين . وهكذا فإن من مهمات كتاب مثل **بعد السماء الأخيرة** الأساسية التشديد على الوجود الفلسطيني أمام أعين العالم ، وتقديم الفلسطينيين كما هم للقارئ الذي لا ينبغي أن يظن أنه هو وحده الذي يتفحص الفلسطينيين بل إن الفلسطينيين الذين في الصور يقومون بتفحصه أيضا . إن الفلسطينيين ، كما يقول سعيد في الصفحات الأخيرة من كتابه ، ليسوا مجرد موضوع للآخرين ، بل إنهم يقومون كذلك بالنظر إلى القارئ وتفحصه والحكم عليه . فعلى القارئ أن يشعر ، حين ينظر إلى الصور ويقرأ النص ، بأن العيون التي تطل من بين ثنايا الكتاب

تراقبه وتتفحصه وتشدد على الوجود الفعلي لها وتقتحم عليه خلوته وتذكـره أن الصـور النـمطيـة التي يحـملهـا عن الفلسطيني لا تمثل الحقيقة . إن الحقيقة موجودة في مكان آخر .

هوامش

١ . دافيد لودج ، ما بعد باختين : مقالات في الرواية والنقد David Lodge, After Bakhtin: Essays on Fiction and Criticism, Routledge, London, 1990.

١ . إدوارد سعيد وجان موهر بعد السماء الأخيرة : حيوات فلسطينية . Edward Said and Jean Mohr, After the Last Sky: Palestinian Lives, Faber and Faber, London, 1986.

٢ . أنظر : « النص والعالم والناقد » حيث يحدد إدوارد سعيد مفهوم عضوية الكاتب الإنجليزي جوناثان سويفت ناقضا مقاربة جورج أورويل لطبيعة المشاركة السياسية لجوناثان سويفت في عصره . The World, The Text and the Critic,Faber and Faber, London, 1984, p. 77.

٣ .أنظر لتوضيح هذه الصورة : Edward Said, A Critical Reader, Michael Sprinker (ed.), Blackwell, Oxford, 1992, pp. 1-4, 5-18.

٤ .أنظر أيضا « لوم الضحايا » Blaming the Victims, Spurious Scholarship and the Palestinian Question, Edward Said And Christopher Hitchens (eds.), Verso, New York, 1988, p. 16.

٥ . يقول سعيد في «الثقافة والإمبريالية» : «هذا الكتاب هو كتاب منفي . ولأسباب موضوعية لم تكن لي يد في السيطرة عليها نشأت كعربي بتعليم غربي ، ولقد شعرت ، منذ ذلك الحين وعلى قدر ما أستطيع التذكر ، أنني أنتمي إلى هذين العالمين دون أن أحس [بالفعل] بالانتماء التام إلى أي منهما .»

أنظر : Culture and Imperialism, Chatto and Windus, London, 1993, p.XXX.

٦ . وأنظر الصورة كاملة في «لوم الضحايا» خصوصا ص : ٢١ـ ١٥٨ .

عن مفهوم المثقف ودوره الرسالي

يبدو عمل إدوارد سعيد الفكري ، وما يمثله كمثقف ، مثالا ملهما في سياق الحديث عن مفهوم المثقف ووظائفه في المجتمع . فقد استطاع سعيد منذ أصدر كتابه الذائع الصيت **الاستشراق** أن يلفت النظر إلى حقيقة أن المثقف ، ولو كان منفيا بعيدا عن تربته الوطنية غريبا في المجتمع الذي أصبح يحمل جنسيته ، يستطيع أن يعلن احتجاجه ونقده لثقافة المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه . وهكذا كان كتاب **الاستشراق** بداية تاريخ فكري من إعادة النظر في المفهومات الغربية للشرق والعالم الثالث ، وتدشينا لطريقة في التفكير تفكك مفاهيم الغرب وتصوراته حول نفسه وحول الآخر . ويمكن عد كتابي **تغطية الإسلام والثقافة والإمبريالية** ، إضافة إلى عدد كبير من المقالات والدراسات والكتب التي شارك فيها أو كتب مقدماتها ، مواصلةً للانشغالات التي بدأها في **الاستشراق** ، حيث يقوم إدوارد سعيد بتوسيع دائرة البحث لتشمل العالم الثالث على الصعيد الجغرافي وطرائق فهم مواطن

العالم الثالث لنفسه وهويته ورد فعله على نظرة الغربي له على صعيد بؤرة البحث والدراسة .

يعيدنا هذا المسار الفكري لعمل إدوارد سعيد ، وإنجازه على صعيد البحث وتاريخ الأفكار ، إلى السؤال الأساسي لوظيفة المثقف وموقفه مما يدور في هذا العالم . لقد رفض سعيد أن يتقوقع في بيئته الأكاديمية كأستاذ مرموق للأدب الإنجليزي في جامعة كولومبيا الأمريكية ، وفضّل ، رغم ما قد يكلفه ذلك على صعيد المكانة الأكاديمية والسلامة الجسدية ، أن يكون منافحا عن القضية الفلسطينية في قلعة الغرب المعادية لحقوق الفلسطينيين ، وأن يفكك المفاهيم الزائفة المصطنعة التي بناها الغرب خلال قرون من الزمن عن نفسه وعن الآخر . ويمكن أن نعثر في كتبه العديدة على الباعث الشخصي لمسيرته الفكرية والثقافية ، على جذوره كمثقف منفي لامنتم ، مستقل يقول الحقيقة للسلطة سواءً أكانت هذه السلطة فكريةً أو سياسيةً .

تمثل هذه الظلال من مسيرة إدوارد سعيد الشخصية ، كفلسطيني مهاجر إلى الولايات المتحدة في أوائل الخمسينيات ، الخلفية التي تقوم في أساس كتابه **صور المثقف** ، الذي هو في الأصل ست محاضرات أعدها المؤلف ليلقيها ضمن سلسلة «محاضرات ريث» في هيئة الإذاعة البريطانية صيف عام ١٩٩٣ ، ونشرتها دار فينتيج عام ١٩٩٤ . وعلى مدار المحاضرات الست يمزج سعيد بين الشخصي والعام ، بين النظرية والممارسة الحياتية للمثقف ، للتشديد على وظيفة المثقف في هذا العالم والتأكيد على دنيوية عمله وانخراطه في الدفاع عن المظلومين والذين لا صوت

لهم ولا حول أو قوة . وفي هذا السياق يمكن فهم الإشارات الكثيرة ، التي يوردها سعيد في الكتاب ، إلى عمله الأكاديمي ومسيرته كمثقف في الولايات المتحدة وانشغالاته السياسية الفلسطينية واتفاق أوسلو ومعارضته له . إن هذه الظلال الشخصية توفر توضيحا عمليا للأفكار والمفاهيم التي يعرض لها المؤلف في ثنايا كتابه صغير الحجم ، وتحيل المجرد إلى كيان ملموس من الممارسة الإنسانية .

بالمعنى السابق لا يمكن عد كتاب **صور المثقف** بحثا نظريا في مفهوم المثقف وشرح وظائفه ، بل إعادة قراءة للمفاهيم المختلفة للمثقف في ضوء التجربة الذاتية والإدراك الشخصي لمفهوم المثقف والأدوار التي يعتقد سعيد أن على المثقف أن يؤديها . ولعل طبيعة المحاضرات ، التي أذيعت على جمهور واسع من المستمعين ، قد أملت ، لحسن الحظ ، نبرة أقرب إلى الذاتية ، بالمعنى الإيجابي للكلمة ، منها إلى أي بحث تاريخي استكشافي لمفهوم المثقف وتطوره منذ نهايات القرن التاسع عشر وصولا إلى نهايات القرن العشرين . ومن هنا فإن الفكرة الأساسية للكتاب تدور حول مفهوم للمثقف يربطه عضويا برسالة يؤديها في المجتمع . وما يلفت انتباه إدوارد سعيد في تحليل المفكر الفرنسي جوليان بندا لدور المثقف ، في كتاب الأخير **خيانة المثقفين** ، هو التشديد على دور المثقف الرافض القادر على قول الحقيقة للسلطة . وإذا كان سعيد يفضل منظور أنطونيو غرامشي في تحليله لوظائف المثقفين فإننا نحس في خطابه ميلا إلى ما يمثله بندا ، وانجذابا إلى نبرة المفكر الفرنسي الرافضة الغاضبة . يقول سعيد إن على المثقف أن «يطرح على

الناس الأسئلة المربكة المعقدة ، وأن يواجه الأفكار التقليدية والعقائدية الجامدة (لا أن ينتج هذه الأفكار ويمارس تلك العقائد) ، أن يكون شخصا لا تستطيع الحكومات أو الشركات اختياره والتعاون معه بسهولة ، شخصا تكون علة وجوده هي تمثيل الناس المنسيين والقضايا التي تم إهمالها بصورة متكررة أو أنها كنست وخبئت تحت البساط . إن المثقف يقوم بهذا الدور استنادا إلى مبادئ كلية شاملة : إذ من حق البشر أن يعاملوا ، فيما يتعلق بالحرية والعدل ، استنادا إلى معايير سلوكية لائقة من قبل القوى العالمية أو القومية ، وأنه ينبغي إثبات الانتهاكات ، المتعمدة أو غير المتعمدة ، لهذه المعايير ومحاربتها بشجاعة .» (ص :٩)

تمثل الفقرة السابقة من كتاب سعيد بؤرة تفكيره في موضوع المثقف ، وخلاصة النظرة التي يشرحها على مدار هذه المحاضرات ؛ وليس التقديم التاريخي والأمثلة التي يضربها من جوليان بندا وأنطونيو غرامشي وجيمس جويس والروائي الروسي تورجينيف وريجيس دوبريه وفيرجينيا وولف والمفكر الألماني ثيودور أدورنو ، وعشرات من الكتاب والمؤلفين الذين اهتموا ببحث دور المثقف وتمثيله على الصعيد السردي الروائي ، سوى محاولة لَمفصَلَة الفكرة الأساسية التي يؤمن بها سعيد ويجلوها في **صور المثقف** .

إن سعيد لا يؤيد تحليل بندا الميتافيزيقي لدور المثقفين الذين يعدهم المفكر الفرنسي «جماعة صغيرة جدا من الملوك ـ الفلاسفة الموهوبين المتفوقين الذين يتمتعون بالأخلاق العالية ويمثلون ، من ثمّ ، ضمير البشرية» . لكنه ، رغم ذلك ، مأخوذ بالصورة الجذابة

للمثقف الرافض لأية سلطة دنيوية ، المثقف الشجاع بصورة مدهشة والقادر على قول الحقيقة للسلطة . في ضوء هذا الانسحار بالشجاعة الأخلاقية العالية لجوليان بندا يبدو تحليل سعيد لواقع المثقف في العالم المعاصر عودة إلى المفهوم السارتري للمثقف الملتزم ، خصوصا أن الحضارة المعاصرة تشجع المثقف على التحول إلى مجرد متخصص يسجن نفسه داخل حقل تخصصه مبتعدا تمام الابتعاد عما يجري حوله من أحداث وما يرتكب من جرائم وفظائع بحق البشر أفرادا وجماعات . إن وحش التخصص والاحتراف ، والتكسب من المهنة ، هو ما ينبه سعيد إلى خطره الذي يتهدد المثقفين في العالم المعاصر . وهو الأمر الذي يجعله ينادي بتحول المثقف إلى شخص هاو في حقل الثقافة لا تجتذبه إغراءات السلطة السياسية والشركات الكبرى التي تدعوه للعمل لمصلحتها ورهن نتائج عمله برغباتها وأهدافها التي قد تمثل أضرارا كبيرة تلحق بالأفراد أو بمجموعات معينة من البشر .

يمكن تأمل هذه النظرة إلى وظيفة المثقف ودوره الرسالي ، بمفهوم بندا ، في ضوء ما كتبه سعيد في كتابيه **غزة ـ أريحا : سلام امريكي** (١٩٩٤) ، و**أوسلو ٢ : سلام بلا أرض** (١٩٩٥) لنرى كيف وظف سعيد رؤيته لدور المثقف في المنافحة عن وجهة نظره كفلسطيني في المنفى فيما جرى الاتفاق عليه في أوسلو والقاهرة . إنه يدافع في **صور المثقف** عن المثقف المستقل ، اللامنتمي (بالمعنى الإيجابي لعدم الانتماء) ، البعيد عن دائرة السلطة ، المنفي والهامشي . وهو يشرح في إحدى محاضرات الكتاب فضائل المنفى وما يوفره من هامشية للمثقف وقدرة على إعادة النظر فيما تواضع عليه البشر وعدوه صحيحا . إن وظيفة

المثقف ، حسب سعيد ، هي معارضة الوضع القائم في زمن الصراع وتأييد المجموعات المهمشة ، التي تتعرض للظلم والإجحاف ، أي تلك المجموعات غير المُمَثلة التي تحتاج صوتا يمثلها ويعلن وضعها للعالم . وهذا ما يفعله سعيد كباحث أكاديمي وكاتب مقالة ومتكلم باسم الفلسطينيين في الغرب ومنافح عن حق أبناء العالم الثالث في تمثيل أنفسهم وتشكيل هوياتهم الثقافية والوطنية ، ما يجعله مثالا لمثقف العالم الثالث الحر ، الهاوي بالمعنى الذي قصد إليه في صور المثقف .

Edward W. Said, Representations of the Intellectual, The Reith Lectures, Vintage, Lon- don, 1993.

غزة ـ أريحا : سلام أمريكي

لا تنبع أهمية كتاب إدوارد سعيد **غزة ـ أريحا : سلام أمريكي**[1] من طبيعة المادة المعرفية التي يقدمها ، رغم أن الكتاب يضيء جوانب أساسية من العلاقة الأمريكية ، بالقضية الفلسطينية وطبيعة الارتباط العضوي للسياسة الخارجية الأمريكية بخصوص الشرق الأوسط ، الفكر السياسي لأعتى دعاة اليمين في إسرائيل ؛ بل هي تنبع من النبرة الشخصية الحميمة التي تتخذها مقالات الكتاب أسلوبا للتعبير عن رؤيتها لواقع الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي بعد توقيع إعلان المبادئ الفلسطيني ـ الإسرائيلي في واشنطن في ١٣ أيلول ١٩٩٣ .

يركز سعيد في الكتاب على تقديم رؤية سياسية للاتفاق الفلسطيني ـ الإسرائيلي استنادا إلى حركة الأحداث اليومية . ومن الواضح أن الصياغة الصحفية لمادة المقالات ، التي تتمثل في دمج الذكريات الشخصية وكيفية اندراج ذات الكاتب في تاريخ الصراع بالتعليق على الأحداث والتطورات السياسية المتسارعة ، قد

منحت كتابة سعيد ، عن قضية لم تتبلور نتائجها بعد ، نوعا من الحيوية والإثارة . فليس إدوارد سعيد باحثا في السياسة ، وليس صحفيا محترفا أو معلقا سياسيا من نمط محمد حسنين هيكل ، الذي أصدر هو الآخر كتابا حول اتفاق غزة ـ أريحا[٢] ، بل هو ناقد أدبي وباحث في الأدب المقارن ، ومنشغل بكيفية انتقال الأفكار وتحولها ، وبالصورة التي تتضافر فيها المعرفة مع القوة بحيث تتمكن الأخيرة من جعل المعرفة وسيلة من وسائل الهيمنة وفرض السيطرة . من معرفة سعيد الموسوعية بالغرب وكيفية توظيفه المعرفة خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، ومعرفته بالطبيعة المعقدة لكيفية اتخاذ القرار في أمريكا ، تنبع أهمية مقالاته إذن ، وكذلك القدرة الكاشفة التي تملكها هذه المقالات التي شاء أن يوجهها ، ولأول مرة في تاريخه الثقافي ، إلى القارئ العربي وينشرها بالعربية ، أولا ، لأنها تهم القارئ العربي بصورة خاصة . لقد نشرت هذه المقالات مسلسلة في صحيفة الحياة اللندنية (باللغة العربية) وفي صحيفة الأهرام ويكلي التي تصدر في القاهرة (بالإنجليزية) ، كما ضُممت لتمزج بين متابعة الحدث اليومي والخبرة الشخصية ونتائج البحث التي توصل إليها سعيد في كتبه السابقة حول القضية الفلسطينية[٣] .

لقد تعرضت كتابات إدوارد سعيد للكثير من الانتقاد من جانب بعض المؤيدين لإعلان المبادئ الفلسطيني ـــ الإسرائيلي وقيل في حينها إن سعيد يعيش بعيدا عن المنطقة ولا يعرف طبيعة تعقيدات الوضع السياسي العربي والفلسطيني ، وهو من ثمّ يتعامل مع الوضع السياسي من وجهة نظر أكاديمية بحثية ذات بعد

طوباوي . ويرد سعيد في مقدمته للكتاب على هذه الانتقادات قائلا :

«سيقول البعض إني أعيش في نيويورك وأكتب منها ، وهي التي تبعد عن الشرق الأوسط ما تبعد ، وهذا صحيح بالطبع . ولكن ما قد لا يعرفه الكثيرون هو أنني لم ابتعد بفكري وبقلبي عن العالم العربي الذي ولدت وتربيت فيه . فحينما اضطرت عائلتي بأكملها إلى النزوح من فلسطين ، بسبب نكبة ١٩٤٨ ، وجدتني أعيش لفترات متفاوتة في مصر ـ التي قضيت فيها سنوات الصبا ـ وفي لبنان ، وفي الأردن ، ثم أخيرا في الولايات المتحدة الأمريكية . وهكذا وبغض النظر عن الرغبة في هذا الأمر من عدمها ، فإنني تحملت نصيبي من الشتات والحرمان ، وهما السمتان الأساسيتان للقدر الفلسطيني . ولكني في نفس الوقت أعرف جيدا أن ما فعلته الأقدار بغالبية الشعب الفلسطيني ، الذي لا يزال قسم كبير منه بلا جنسية حتى الآن ، والذي يعاني جزء كبير منه من شظف العيش تحت الاحتلال العسكري ، كان أشد قسوة بما لا يقاس مما فعلته الأقدار بي . ولهذا أحاول استخلاص فائدة عامة من محاباة الأقدار هذه ، حيث يحدوني الأمل في أن تتيح لي المسافة البعيدة نسبيا ، التي أتعامل مع هموم الوطن عبرها ، منظورا أرحب وحرية أوسع في تقييم مسيرتنا الوطنية ، الأمر الذي قد لا يتوفر لأولئك الذين يعيشون في خضم الأحداث المتلاحقة .»(ص : ١٦-١٧)

تقوم في أساس هذه الإشارة ، التي يرد فيها سعيد على منتقديه ، فكرة البعد وأثرها في إتاحة رؤية أوسع وأكثر شمولا

لتقييم الأحداث السياسية وغير السياسية كذلك . ولعلها أن تكون الفكرة المهيمنة في عمل سعيد الفكري الذي يبدو نتاج منفي ولامنتم ينظر إلى تأثير الفكر والثقافة والسياسة الغربية عموما عليه كمواطن آت من العالم الثالث . ورغم أنني لا أسعى هنا إلى توضيح ارتباط نظر إدوارد سعيد في الشأن السياسي الفلسطيني ببحوثه الأخرى التي تناولت الاستشراق والثقافة والإمبريالية ، على سبيل المثال ، إلا من الضروري الإشارة في هذا السياق إلى أن دراستي سعيد المميزتين في **الاستشراق و الثقافة والإمبريالية** تضيئان بصورة ساطعة كتابه هذا ، وهما تلهمانه فهمه الملموس لطبيعة تفكير العقل الغربي ، الأمريكي هذه المرة ، لأشكال حل الصراع بين الشعوب .

في الفصل الذي يتناول فيه الكاتب تاريخ اللقاءات الإسرائيلية ـ الفلسطينية ، قبل بدء محادثات السلام ، نقع على إشارة شديدة الأهمية حول تلك اللقاءات التي كان يرتبها هيربرت كيلمان ، الأستاذ في جامعة هارفارد والذي كان يفتتح بتلك اللقاءات ميدانا أكاديميا جديدا أطلق عليه في حينه «حل الصراع» . ويؤكد سعيد أنه شارك في بعض تلك اللقاءات ، لكن ما لفت انتباهه هو أن كيلمان ، الذي يتصف بقدر عال من التفكير المثالي ، كان يؤمن «بأن بعض المشكلات (. . .) التي تفرق بين الإسرائيليين والفلسطينيين تعود إلى صعوبات تتعلق بالمفاهيم والحواجز النفسية وعقود من سوء الفهم ، ومن ثم يتعيّن تبديدها .» (ص :٧٩)

بتأثير من هذا الفهم ، الذي كان يشيعه كيلمان في لقاءاته

تلك ، بدأت تظهر وجهات نظر ترى أن الصراع على فلسطين لم يكن صراعا حقيقيا ماديا بل كان ثمرة سوء تفاهم نفساني حتى إن أحدهم كتب ، كما يورد سعيد ، مقالة بعنوان «السياسة الخارجية من منظور فرويد» .

تتضمن الإشارة السابقة إضاءة هامة لكيفية تفكير قطاع واسع من مؤيدي الصهيونية في الولايات المتحدة الذين يؤمنون بالحل السياسي للصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي لكن على طريقتهم الخاصة التي تتجاهل الوقائع المادية على الأرض . ومن هنا يصدر سعيد في انتقاده إيمان القيادة الفلسطينية بأن مركز صنع القرار السياسي في البيت الأبيض يمكن أن يجبر إسرائيل على تقديم تنازلات للطرف الفلسطيني . إنه يرى ، نتيجة لفهمه التفكير السائد في الولايات المتحدة ، أن «فكرة وجود راع أو حكم أمريكي يقف خارج دائرة الصراع ليديره أو يراقبه بهدوء هو خرافة أيديولوجية .» (ص :٧٩) ويدلل على ذلك من خلال تحليله للتطرف الديني والعرقي اليميني في إسرائيل الذي تم إنتاجه في أمريكا . إن مائير كاهانا وأتباعه ، ومن ضمنهم باروخ غولدشتاين منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمي ، قد تم صنعهم في أمريكا ، كما أن تمويلهم الأساسي يأتيهم من المنظمات الصهيونية وكذلك الأمريكية التي تكره العرب . (ص : ١٠٨-١٠٩)

إن من الصعب النظر إلى أمريكا ، في ضوء هذه الحقائق ، بوصفها طرفا محايدا في الصراع لأنها في الحقيقة تقوم بتمويل التسلح والاستيطان الإسرائيليين في الأرض العربية المحتلة ، كما أن

السياسة الخارجية الأمريكية الحالية بخصوص الشرق الأوسط قد تمت صياغتها من قبل دينيس روس ومارتن إنديك ، وهما صهيونيان متعصبان لإسرائيل عملا من قبل في «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط» ، وهو مؤسسة أبحاث مرتبطة بـ« اللجنة الإسرائيلية الأمريكية للشؤون العامة» (ايباك) واللوبي الصهيوني وحزب ليكود . (ص : ١٤٥) ومن الواضح ، كما يعتقد سعيد ، أن السياسة الخارجية الأمريكية في عهد الرئيس بيل كلينتون هي أكثر خضوعا للخطوط العامة لهذه السياسة التي وضعها مارتن إنديك في دراسة له نشرها عام ١٩٨٨ وكانت أساسا لتقرير عن السلام في الشرق الأوسط ينادي بضرورة أن يكون «جوهر السياسة الأمريكية (...) التركيز المستمر على مصالح إسرائيل» . (ص :١٤٦)

في ضوء ذلك فإن ما يأخذه سعيد على القيادة الفلسطينية ، وعلى العقل العربي الرسمي عموما ، هو جهلها بالولايات المتحدة و افتراضها أن بالإمكان كسب السياسية الأمريكية لصف الشعوب العربية ومصالحها (ص : ١٩) . ويشير سعيد ، بصورة متواصلة ، إلى هذه المعضلة القائمة على جهل مطبق بطبيعة التفكير السياسي في أمريكا وبكيفية اتخاذ القرار وأماكن صنع هذا القرار وإهمال محاولة التأثير على جماعات الضغط التي ليست لها مصلحة في استمرار الدعم الأمريكي لإسرائيل وسياساتها ، والتوجه بدلا من ذلك إلى الجهات الأكثر التصاقا بالصهيونية وبإسرائيل ومصالحها ، متهما بعض الجهات الفلسطينية بأنها تسعى إلى ربط مصالح منظمة التحرير بمصالح اسرائيل . (ص : ٦١)

إن هذه الخلفية ، التي يوفرها الكتاب في مواضع مختلفة من

صفحاته ، تدفع الكاتب إلى الوقوف بوضوح ضد اتفاق غزة ـ أريحا ناعتا الصفقة المبرمة بين منظمة التحرير وإسرائيل بأنها سلام أمريكي يضمن مصالح الولايات المتحدة بالهيمنة على المنطقة العربية ويضمن لإسرائيل الدخول إلى البلدان العربية دون أن تكون قد قدمت أي تنازل فعلي عن الأرض مقابل الحصول على السلام .

تتمثل وجهة نظر سعيد حول توقيع اتفاق إعلان المبادئ ، وما تلاه من اتفاقات فلسطينية ـ إسرائيلية ، في أن ما حدث سيؤدي إلى كارثة وأنه إهدار لمكاسب النضال الفلسطيني على مدى ما يزيد عن نصف قرن من الزمن . ويعيد سعيد هذا الوضع إلى «إصرار ياسر عرفات وحفنة من مستشاريه على قبول أي شيء تلقي به الولايات المتحد وإسرائيل في طريقهم ، حتى لا يفوتهم ركب «عملية السلام» . وقد أدت السياسات الخاطئة التي اتبعتها منظمة التحرير الفلسطينية ، إبان أزمة الخليج ، والإدارة غير الرشيدة للأموال والأصول الفلسطينية ، إلى هذا التحول . فقد وجدت قيادة منظمة التحرير نفسها ، وفي خضم حالة الفوضى والذعر من المستقبل ، تفرط في كافة الأهداف الوطنية والمشروعة للشعب الفلسطيني لصالح ما يعرف «بالحل الانتقالي» ، الذي اقترحه شامير ، و أيده جورج بوش وجيمس بيكر»(ص :٢١) . إن الاتفاق ، حسب إدوارد سعيد ، هو «أداة الاستسلام الفلسطيني ، أو بتعبير آخر : فيرساي فلسطينية» (ص : ٣٩) ، وذلك لأسباب عديدة : منها أن الاتفاق يترك الفلسطينيين «بلا اعتراف بحقهم في تقرير المصير وبلا ضمان لسيادة مستقبلية وبلا حقوق في التمثيل وبلا

ذكر لحق العودة أو التعويض» (ص : ٢١) . كما أن « الاهتمام الأول في الاتفاق الجديد هو أمن إسرائيل دون ذكر شيء عن أمن الفلسطينيين أمام الهجمات الإسرائيلية» (ص : ٤١) ؛ إضافة إلى ذلك فإن إسرائيل تخطط لإقامة معازل عرقية وتعمل جاهدة على منع تطور الحكم الذاتي المحدود إلى دولة مستقلة .» (ص : ١٢٣)

إن كتاب **غزة ـ أريحا : سلام أمريكي** غني بالإشارات إلى طبيعة العيش في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وهو يتخذ الوصف الذي يقدمه للوضع في غزة ، قبل دخول القيادة الفلسطينية إليها ، منطلقا للتعرف على ما يعد به الاتفاق أهل غزة والضفة الغربية من انفراج سياسي أو استحكام للأزمة .

يرى سعيد أن «غزة والقدس هما من بين المفاتيح الأساسية للمستقبل الفلسطيني : القدس (. . .) بسبب الحرص الذي يبديه الإسرائيليون في توسيع أعمالهم الاستيطانية داخلها ، وغزة لأنها تمثل جوهر القضية الفلسطينية ، لكونها ذلك الجحر الجهنمي المكتظ باللاجئين المعدمين المتعرضين دوما للاضطهاد ، والذين كانوا على رغم ذلك ، ولا يزالون ، دينامو المقاومة والنضال ضد الاحتلال الإسرائيلي .» (ص :٩٤) وهو يرى انطلاقا من ذلك أن الأزمة الكامنة في غزة بصورة أساسية قد أدت «إلى انشقاق داخل الأجنحة السياسية والعسكرية للتنظيمات . فقد اضمحلت روح المقاومة وحل محلها جو من العنف يعاني منه الشعب [الفلسطيني] لا قوات الاحتلال . وتعتبر غالبية السكان أن المشروع الوطني مني بهزيمة ـ وهو الشعور الذي انتشر بعد زوال الفرحة المبكرة باتفاق أوسلو .» (ص :١٠١)

أما بالنسبة للقدس فإن سعيد يشرح ما تخطط له إسرائيل للسيطرة على القدس ببناء حلقتين من المستوطنات متحدتي المركز حولها بحيث تبتلع معظم مساحة وسط الضفة الغربية وصولا إلى بير زيت في الشمال وحتى ضواحي الخليل في الجنوب . وهو يرى أن ما تخطط له إسرائيل من ابتلاع لمعظم مساحة الضفة الغربية ، والاستيلاء النهائي على القدس وما حولها ، لا يلقى أي رد فعل من قبل سلطة الحكم الذاتي . فليس هناك أية خطة استراتيجية مضادة لمقاومة سياسة الابتلاع وفرض الأمر الواقع ، وهو ما سيؤدي إلى «تقسيم السكان الفلسطينيين إلى جزر وكانتونات ومناطق صغيرة يسهل احتواؤها .» (ص : ٦٩)

إن قيادة منظمة التحرير ، في رأي سعيد ، لم تعمل على الاستفادة مما حققته تضحيات الشعب الفلسطيني طوال العقود الماضية كما أنها قضت على «عبقرية ما كنا نسميه الثورة الفلسطينية أثناء خوضها معركة التحرير : أي قدرتها على الهام العرب وغيرهم للمشاركة في حركة للتحرر الوطني والعدالة ، مشاركة تتجاوز التقسيمات وحدود اللغة .» (ص : ١٠٢)

لكن ما هو الحل في نظر سعيد؟ ما هي الإمكانيات التي يمتلكها الشعب الفلسطيني لكي يستطيع التغلب على المخاطر التي يحملها معه إتفاق غزة ـ أريحا؟

لا يبدو كتاب سعيد قادرا على بلورة استراتيجية سياسية عملية للخروج من الأزمة . إنه يتهم القيادة الفلسطينية بالتفريط بحقوق الشعب الفلسطيني بسبب انعدام الكفاءة الشخصية لهذه القيادة وعدم قدرتها على بلورة استراتيجية واضحة للتغلب على الظرف السياسي القائم ؛ ولكنه في الوقت نفسه لا يشير إلى

خطوات عملية مقنعة يتبناها الشعب الفلسطيني للخروج من هذه الأزمة السياسية المستحكمة والتي برهنت الأيام التالية لتوقيع الاتفاق الفلسطيني ـ الإسرائيلي على صحة توقعات إدوارد سعيد بخصوصها .

ما يردده سعيد في هذا الكتاب ، وفي مقالاته التالية وفي الحوارات التي أجريت معه ، هو أن القيادة الحالية لمنظمة التحرير قد استنفدت دورها وينبغي أن ترحل«٤» . أما الخطوات التي يعتقد أن على مراكز القوى الفلسطينية المعارضة لاتفاق أوسلو اتباعها فهي أن تسعى إلى إجراء إحصاء عام للشعب الفلسطيني ، في كل أماكن تواجده ، وأن تثير مجددا قضية حق العودة أو التعويض ، وأن يكون من حق الفلسطينين ، في كل اماكن تواجدهم ، المشاركة في انتخابات ديموقراطية حرة لاختيار قيادة فلسطينية جديدة .

إن تشخيص سعيد للوضع يبدو أكثر واقعية من الحلول التي يقدمها ، وميزة كتابه هو أنه يصف الوضع السياسي في المنطقة دون رتوش ، دون أن يقدم مبررات أو أعذارا لما تم التنازل عنه أو التوقيع عليه دون تفكير جدي بما يمكن أن يجر إليه التوقيع من ويلات ومصاعب .

هوامش

١ . غزة ـ أريحا : سلام أمريكي ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢ . قدم محمد حسنين هيكل لهذا الكتاب بطلب من إدوارد سعيد كما يشير هيكل في مقدمته . ص : ١٣ .

٣ . أصدر إدوارد سعيد عام ١٩٩٢ طبعة جديدة من كتابه «القضية الفلسطينية» الذي كان أصدره عام ١٩٧٩ ، كما أنه أصدر كتابا يضم ما كتبه من مقالات حول القضية الفلسطينية بعنوان «سياسة السلب : الكفاح من أجل حق تقرير المصير الفلسطيني : ١٩٦٩ ـ ١٩٩٤» The Politics of Dispossession: The Struggle for Palestinian Self-Determination 1969-1994

٤ . أنظر ما كتبه في صحيفة الأهرام ويكلي الأسبوعية Al-Ahram Weekly (Cairo), 22-28 December, 1994.

الفهرس

للمؤلف

١ . القصة الفلسطينية القصيرة في الأراضي المحتلة ، ١٩٨٢ .

٢ . أبو سلمى : التجربة الشعرية ، ١٩٨٢ .

٣ . مختارات من القصة القصيرة الفلسطينية ، ١٩٨٢ .

٤ . في الرواية الفلسطينية ، ١٩٨٥ .

٥ . أرض الاحتمالات : من النص المغلق إلى النص المفتوح في السرد العربي المعاصر ، ١٩٨٨ .

٦ . وهم البدايات : الخطاب الروائي في الأردن ، ١٩٩٣ .

٧ . المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر (تقديم وتحرير) ، ١٩٩٥ .

٨ . دراسات في أعمال السياب ، حاوي ، دنقل ، جبرا (تقديم وتحرير) ، ١٩٩٦ .

٩ . الشعر العربي في نهاية القرن (تقديم وتحرير) ، ١٩٩٧ .

١٠ . شعرية التفاصيل : أثر ريتسوس في الشعر العربي المعاصر ، ١٩٩٨ .

١١ . أفول المعنى : في الرواية العربية الجديدة ، ٢٠٠٠ .

من ترجماته

١ . النقد والأيديولوجية ، تيري إيجلتون ، ١٩٩٢ .

٢ . ميخائيل باختين : المبدأ الحواري ، تزفيتان تودوروف ، الطبعة الأولى ١٩٩٢ ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ .

٣ . النقد والمجتمع (تحرير وترجمة) ، ١٩٩٥

٤ . ربيع آخر ، تاكاشي تسوجي ، ١٩٩٧ .

* نال جائزة فلسطين للنقد الأدبي ١٩٩٧

صدر لفخري صالح عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر

* أرض الاحتمالات : من النص المغلق إلى النص المفتوح في السرد العربي المعاصر ، ١٩٨٨ .
* وهم البدايات : الخطاب الروائي في الأردن ، ١٩٩٣ .
* المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر (تقديم وتحرير) ، ١٩٩٥ .
* دراسات في أعمال السياب ، حاوي ، دنقل ، جبرا (تقديم وتحرير) ، ١٩٩٦ .
* الشعر العربي في نهاية القرن (تقديم وتحرير) ، ١٩٩٧ .
* شعرية التفاصيل : أثر ريتسوس في الشعر العربي المعاصر ، ١٩٩٨ .
* أفول المعنى : في الرواية العربية الجديدة ، ٢٠٠٠ .

ترجمات :

* النقد والأيديولوجية ، تيري إيجلتون ، ١٩٩٢ .
* ميخائيل باختين : المبدأ الحواري ، تزفيتان تودوروف ، ١٩٩٦ .
* النقد والمجتمع (تحرير وترجمة) ، ١٩٩٥ .



دفاعاً عن إدوارد سعيد

خلال صيف العام الماضي أطلق الإعلام الصهيونيّ في أمريكا، وبعض الصحف والمجلّات المتعاطفة مع اليمين الصهيونيّ في أمريكا وبريطانية، حملة جديدة على إدوارد سعيد؛ فبعد أن وصفته مجلّة كومنتري، قبل أكثر من عشر سنوات، بأنّه « بروفيسور الإرهاب »، نشرت المجلّة نفسها مقالة ضافية لمحام يهوديّ أمريكيّ يدعى جستس رايد ڤاينر يتّهم فيها إدوارد سعيد بأنّه زيّف سيرته الذاتيّة واختلق قصّته ولا يصحّ أن يسمّي نفسه لاجئاً. وقد تبنّت صحيفة « الديلي تلغراف » الحملة، ونشرت قبل صدور مقالة ڤاينر تغطية استعراضيّة لنتائج البحث الّذي قام به المحامي اليهوديّ على مدار سنوات ثلاث (!) حول أملاك عائلة إدوارد سعيد في مصر، واستقرار والده في القاهرة لفترة طويلة.

وعندما صدرت سيرة إدوارد سعيد الذاتيّة « خارج المكان » تبيّن أنّ الضجّة الّتي أثارها ڤاينر كانت زوبعة في فنجان هدفها سياسيّ في الأساس يترافق مع بعض استحقاقات الحلّ النهائيّ للقضيّة الفلسطينيّة، وترمي إلى تكذيب الرواية الفلسطينيّة عن الاحتلال الّذي بنى دولة إسرائيل على أنقاض الشعب الفلسطينيّ وأرضه وحقوقه، وقد كان إدوارد سعيد ضحيّة ملائمة لكونه مفكّراً وناقداً وأكاديميّاً لامعاً في أمريكا والغرب، ولكونه في الآن نفسه مدافعاً صلباً عن حقوق الفلسطينيّين في الصحافة والمجتمعات الأكاديميّة وعلى شاشات التلفزيون في أمريكا والعالم.

هذا الكتاب يتصدّى لأضاليل ڤاينر ودوائر الإعلام الصهيونيّة الحاقدة الّتي روّجتها، ويستعرض ما كتب في الصحافة الأمريكيّة حول الموضوع، بالإضافة إلى دفاعات المؤلّف الّتي تلقي الضوء على جوانب من فكر إدوارد سعيد في ما يتعلّق بمعنى الهويّة، ومفهوم المثقّف، والمشاركة السياسيّة.

